سبائك الذهب

في كشف آفات الطلب

تأليف

أبي عبد الله أحمد بن إبراهيم بن أبي العينين

مكتبة ابن عباس

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ١٨٣٤٤/ ٢٠٠٥

الناشر

دار ابن عباس

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك لـه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وبعـد . فـإن الله عـز وجـل يقول لنبيه ﷺ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، قال الحافظ ابـن حجـر رحمه الله في الفـتح: إن الله تعالى لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا مـن العـلم ، والمراد بالعلم العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف مـن أمـر ديـنه في عـبادته ومعاملاتـه ، والعلم بالله وصفاته ، وما يجب لـه من القيام بأمـره ، وتـنزيهه عن النقائص اهـ .وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحـارث لقـي عمـر بعسـفان ، وكـان عمر يستعمله على مكة ، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى ، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا .

قال: فاستخلفت عليهم مولى؟

قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل ، وإنه عالم بالفرائض .

قـال عمـر: أمـا إن نبـيكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ، ويضع به آخرين**»[1] .

وقـد قـال الله عـز وجـل ﴿ **يَـرْفَعِ اللَّـهُ الَّذِيـنَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نفس عن مؤمن كربة مـن كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله علـيه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد**

(١) رواه مسلم (٨١٧)

ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله لــه به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» [١]، وعـن معاويـة رضي الله عنه قال: قال: ﷺ **«من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»** [٢] .

وعـن ابـن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتــاه الله مــالا ، فســلط عــلى هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعــلمها»**[٣]، والأحاديـث في فضـل العلم كثيرة ، ومع ذلك فقد أعرض أناس ممن بـأيديهم توجـيه الشـباب عـن توجـيههم لطلـب العلم الشرعي والاجتهاد فيه ، بل صـرفوهم إلى الاشـتغال بالصحف والجرائد والمجلات ، وإضاعة الأوقات والجهد في معـرفة تفاصـيل السياسـة وأحوال العاملين فيها ، وقد لا يحسن كثير منهم الصلاة ، ومـع ذلك فقد امتلأ كثير منهم بالحماسة للإسلام ، والغيرة على دين الله عز وجل ، أمـر محمود ، ولكن الحماسة بدون علم وبصيرة ودون توجيه من أهل العلم كثيرا ما تـؤدى إلى فسـاد عـريض ، وكـل دعـوة لا تقـوم على العلم فمآلها إلى الفشل ، لأنها مخالفـة لدعـوة رسول الله ﷺ، فقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وقـال الإمـام الـبخاري رحمـه الله:بـاب العـلم قـبل القـول والعمـل لقول الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ، ومع هذا الإعراض عن العلم من الكثيرين

إلا أن الله عـز وجـل قـد أخذ بنواصي كثير من الشباب لطلب العلم الشرعي ، فأصـبحنا بحمـد الله نـرى كـثيرا منهم يقبل على حفظ كتاب الله عز وجل ، ودراسة

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩)

(٢) رواه البخاري(٧١) ، ومسلم(١٠٣٧)

(٣) رواه البخاري(٧٣) ، ومسلم(٨١٦) ، وورد بنحوه من حديث ابن عمر في الصحيحين أيضا .

الحديث والفقه واللغة وغير ذلك من العلوم الشرعية ، فأسأل الله أن يبارك فيهم وأن يصرف عناوعنهم مضلات الفتن ، ومع وجود هذا الخير الذي ينشرح به صدر كل مؤمن صادق فقد ظهر بين هؤلاء الشباب صنف آخر قد ابتلوا بأمراض وآفات خطيرة قد شوهت صورة أولئك الشباب المخلص ، حتى كادت أن تصد كثيرا من الصادقين عن طلب العلم النافع ، وآفات طلب العلم قديمة ، ولذلك حذر منها أهل العلم ، وصنفوا الكتب الكثيرة في أدب الطلب والتحذير من ضده ، ومع كثرة الكتب المصنفة في هذا الباب إلا أن الداء يتفاقم خاصة في أيامنا هذه ، وما أظن أحدا من أهل العلم من قبل هذا الزمان كان يتصور ما آل إليه حال كثير ممن ينتسبون لطلب العلم في أيامنا هذه ، فمن كان يصدق أن رجلا لا صلة له بالعلم ، بل لا صلة له بربه عز وجل فهو غارق في كل ما يتصور من المعاصي والفجور يصير بعد أيام مصنفا يخرج للناس كتبا على أغلفتها تأليف فلان بن فلان ، أو تحقيق فلان بن فلان ، ومع ذلك فإن الغالب على مثل هذا أن أخلاقه وسلوكه لا يمكن أن تتغير في هذه المدة القصيرة ، فربما نكص على عقبيه ، ورجع إلى حاله الأول ، ولا تزال كتبه في الأسواق عليها تأليف فلان بن فلان ، فأي إزراء بالعلم وطلبه أشد من مثل هذا الحال؟! .

ومن كان يظن أن بعض من ينتسبون لعلم ، وربما اعتقد فيهم بعض الناس أنهم علماء يأخذون جهود طلبة العلم فينتحلونها ، ثم يخرجونها للناس على أنها من جهدهم وعملهم؟

فأي قتل للفضيلة والصدق والأمانة في نفوس الناشئين من طلاب العلم أعظم من ذلك؟

أسأل الله السلامة والعافية .

ومن كان يظن أن تصنيف الكتب الشرعية سيصير إلى تجارة أو صناعة لها أماكن للتصنيع يكتب عليها مكاتب تحقيق ، يجتمع فيها العدد الكثير من العاملين ، ثم يخرج الكتاب باسم رجل ربما أنه لم ينظر فيه وإنما يشتريه بماله؟ والله المستعان .

هـذا وإن الصـادق الذي يريد وجه الله إذا رأى مثل هذه الصور المقززة فإنه ربما ابـتعد عـن طلب العلم بالكلية ظنا منه أن هذه الصور لكثرتها - لا كثرها الله - هم طلـبة العـلم ، ولا سبيل إلى طلب العلم إلا بهذه السبل وعلى هذه الصور ، ولذلك فمـن بـاب الحـرص عـلى إبقـاء صـورة العـلم وطلبـته بيضاء نقية قمت بجمع هذا الكـتاب ، وسميـته بـ "**سبائك الذهب في كشف آفات الطلب**" ، فأسأل الله عز وجـل أن يـنفع بـه الإسـلام والمسلمين ، وأن ينفعني به في الدارين ، إنه سميع قريب مجيـب الدعـاء ، هـذا وإنـي أرى أن هـذا الكـتاب أو غيره لا يكفي لإصلاح المسار والقضـاء عـلى هـذه الآفـات الرديـئة ، بـل لا بـد مـن تضـافر جهود المخلصين من المشـتغلين بالعـلم والدعـوة إلى الله لمحاربـة هـذه الآفـات وأهـلها حـتى يستقيموا أو ينصـرفوا عن هذه الطريق إلى غيرها ، فأرجو من الله عز وجل أن يكون هذا الكتاب بدايـة لتصحيح المسار والوقوف في وجه الانحراف والمنحرفين ، وأسأل الله عز وجل أن يعفو عنا وأن يسترنا في الدارين ، وأن يغفر لنا ولإخواننا المسلمين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه

أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم بن أبي العينين

هذا وقد آن وقت ذكر آفات الطلب التي يسر الله جمعها:-

* * * * *

(الرياء في طلب العلم)

الرياء وهو عمل الطاعة ليمدح عليها ، وهو من أخطر أمراض القلوب ، فهو محبط للعمل ، يتعب الشخص نفسه في عمل الطاعة ، أو ينفق من ماله ، ثم تصير هباء منثورا ، نعوذ بالله من الخذلان ، روى مسلم في "صحيحه" (٢٩٨٥) ،

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» .

بل لا يقف الأمر عند هذا الحد في خطورة الرياء ، فقد روى البخاري ومسلم في "صحيحيهما" عن جندب بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :«**من سمع سمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به**» [1]

قال الحافظ في الفتح: "قال الخطابي: معناه من عمل عملا على غير إخلاص ، وإنما يريد أن يراه الناس ، ويسمعوه جوزي على ذلك بأن يشهره الله ، ويفضحه ، ويظهر ما كان يبطنه". وليس ذلك فقط ، بل من اعتاد الرياء ، وصار ديدناً له ، فإن فعله للطاعات رياء يكون سببا في دخوله النار والعياذ بالله ، فقد روى مسلم في صحيحه(١٩٠٥) عن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس عن أبي هريرة ، فقال له ناتل أهل الشام: أيها الشيخ حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، قال: نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم، وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها. قال فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال**

(١) رواه البخاري (٦٤٩٩) ، ومسلم(٢٩٨٧)وغيرهما .

كلــه، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار» .

فالـرياء مرض خطير من أمراض القلوب قلما ينجو منه أحد ، لذلك كان سلف الأمة يحذرون منه أشد الحذر ، حتى إن بعضهم ليقول: ما عالجت شيئا أشد من النية أي في إخـلاص النـية لله رب العـالمين ، ولا يستشعر عظمة هذا الأمر إلا من جاهد نفســه في الله وعـرف عـيوب نفسـه ، أما من لا يحس به فالأمر كما يقال: ماذا يصنع الشيطان في البيت الخرب؟!! .

وهـو أعني الرياء من أشد الآفات فتكا بطالب العلم ، ومن أشدها انتشارا بينهم خاصة في عصرنا الذي كثرت فيه الوجاهات المصطنعة التي قدرها الله لحكمة يعلمها لـبعض مـن انتسـب لعـلم ، فصـار فتنة عظيمة لطالب العلم المبتدأ ، وهو في مرحلة نشـأته ، لـيس عـنده مـن العلم وممارسة العبادة ما يؤهله لتمييز الطيب من الخبيث ، فـأخذت بألـباب كـثير من هؤلاء هذه الهالات المصطنعة ففتنوا ، وأصبح جل همهم أن يكون لـهم من الوجاهة مثل ما لفلان ، فصار الحال ببعضهم إلى أن يقلد من فتن به في سلوكه وهيئته ومشيته ، وغاب عنه الأصل الأصيل ، وهو إخلاص العمل لله ، فعـرض نفسـه لـلهلاك ، والعياذ بالله ، نسأل الله عز وجل أن يرزقنا الإخلاص نحن وإخوانـنا المسـلمين ، فيجـب عـلى طالـب العـلم أن يحذر أشد الحذر من هذا الداء العضـال الذي لم يسلم منه إلا من رحم الله ، وكذلك واجب على من يقومون على التعلـيم أن يراقـبوا هذا الأمر في أنفسهم أولا ، ثم فيمن يقومون بتعليمهم ، قال ابن مفلح في الآداب الشرعية(١/ ١٣٥)

قـال ابـن عقـيل: أنـت لـو علمت أن إكرام الخلق لك رياء سقطت من عينك ، أفأقنع أنا منك أن تجعلني في العادة جزءا من كل ، بعضا من جماعة؟

وقـال: مـا يحلو لك العمل حتى تحلو لك تسميتهم بعابد وزاهد ، فارث لنفسك مـن ذلـك ، فإنـه رياء وسمعة ، وليس لك منه إلا ما حظيت به من الصيت ، تدري

كم في الجريدة أقوام لا يؤبه لهم إلا عند القيام من القبور ، وكم يفتضح غدا أرباب الأسماء من الخلق بعالم ، وصالح ، وزاهد ، نعوذ بالله من طفيلي تصدر بالوقاحة[١] .

وعن أبي سعيد مرفوعا:«**لو أن أحدهم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائنا ما كان** » ، رواه الإمام أحمد من رواية ابن لهيعة[٢]، وعن أبي هريرة مرفوعا:« **إن العبد إذا صلى في العلانية ، فأحسن، وصلى في السر فأحسن، قال الله عز وجل: هذا عبدي حقا**» . رواه ابن ماجة[٣] ، وروى أحمد عن مالك بن دينار قال: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ، ولم أكره مذمتهم ، قيل: ولم ذاك؟

قال: لأن حامدهم مفرط ، وذامهم مفرط .

وروى ابن الجوزي في مناقب أصحاب الحديث بإسناده عن ابن السماك ، سمعت أحمد بن حنبل يقول: إظهار المحبرة من الرياء . انتهى .

قلت: واعتراف العبد بضعفه وعيبه خير له من مغالطته ومكابرته ، وهي أول خطوة في علاج نفسه من أمراضها ، وقد كان سلفنا الصالح يحطون من أنفسهم ، ولا يدعون الإخلاص ، قال الذهبي في السير (٧/ ١٥٢): قال عون بن عمارة: سمعت هشاما الدستوائي يقول: والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوما قط

---

(١) ما أشف رؤية علمائنا وأئمتنا رحمهم الله بمواضع العلل ، وقد رأيت بعيني أحد المنسوبين إلى علم ، قد قرب طعاما لضيوف غرباء ، وعندما بدؤوا يأكلون إذا به يجلس بجوارهم يشغل نفسه بشيء من العلم ، فلما دعاه أحد الحضور من الضيوف الغرباء اعتذر إليه بالشغل وعدم الفراغ ، فأجاب الضيف صاحبه: اشغل نفسك ببطنك ، الشيخ مشغول بما هو أهم ، نحن همنا على بطوننا ، أو نحو ذلك ، وهذا المسكين لم ينتفض لهذا الأمر ، بل استمر في هذه المهزلة . نسأل الله السلامة .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨) وغيره من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد به ، ودراج فيه مقال ، وحديثه عن أبي الهيثم خاصة ضعيف ، وضعف الحديث شيخنا الألباني رحمه الله كما في الضعيفة(١٨٠٧) ، ومع ذلك فما أحسن معناه! .

(٣) أخرجه ابن ماجه(٤٢٠٠) من طريق بقية عن ورقاء بن عمر ثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعا به ، قال أبو حاتم في العلل لابنه(١/ ١٨٩) رقم(٥٤١): حديث منكر ، يشبه أن يكون من حديث عباد بن كثير . ا هـ .
قلت: وعباد بن كثير تالف ، وضعفه شيخنا الألباني كما في ضعيف الجامع(١٤٩٨) .

أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل تعالى ، قال الذهبي: والله ولا أنا ، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا ، وصاروا أئمة يقتدى بهم ، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله ، وحصلوه ، ثم استقاموا ، وحاسبوا أنفسهم ، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق ، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم ومالنا فيه كبير نية ، ثم رزق الله النية بعد ، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله ، فهذا أيضا حسن ، ثم نشروه بنية صالحة ، وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا ، وليثنى عليهم ، فلهم ما نووا

قال عليه السلام«**من غزى ينوي عقالا فله ما نوى**» [1] وترى هذا الضرب لم يستضيئوا بنور العلم ، ولا لهم وقع في النفوس ، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل ، وإنما العالم من يخشى الله تعالى ، وقوم نالوا العلم ، وولوا به المناصب ، فظلموا ، وتركوا التقيد بالعلم ، وركبوا الكبائر والفواحش ، فتبا لهم ، فما هؤلاء بعلماء .

وبعضهم لم يتق الله في علمه ، بل ركب الحيل ، وأفتى بالرخص ، وروى الشاذ من الأخبار ، وبعضهم اجترأ على الله ، ووضع الأحاديث ، فهتكه الله ، وذهب علمه ، وصار زاده إلى النار ، وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئا كبيرا ، وتضلعوا منه في الجملة ، فخلف من بعدهم خلف بان نقصهم في العلم والعمل ، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر ، ولم يتقنوا منه سوى نذر يسير ، أوهموا به أنهم علماء فضلاء ، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله ، لأنهم ما رأوا شيخا يقتدى به في العلم ، فصاروا همجا رعاعا ، غاية المدرس منهم أن يحصل كتبا مثمنة يخزنها وينظر فيها يوما ما ، فيصحف ما يورده ، ولا يقرره ، فنسأل الله النجاة والعفو ، كما قال بعضهم: ما أنا عالم ولا رأيت عالما . اهـ .

---

(١) رواه النسائي(٦/ ٢٤-٢٥) ، وأحمد(٥/ ٣١٥ ، ٣٢٠) ، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند(٥/ ٣٢٩) ، والدارمي (٢٤١٦) كلهم من طريق يحيى بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن جده عبادة ، ويحيى لم يرو عنه غير جبلة بن عطية ، وقال في التقريب: مقبول ، فإسناده ضعيف ، والله أعلم

وفي السير أيضا (٧/ ٢١٣): قال أبو قطن: سمعت شعبة بن الحجاج يقول: ما شيء أخوف عندي من أن يدخلني النار من الحديث، وقال: وددت أني وقاد حمام، وأني لم أعرف الحديث.

قال: الذهبي: كل من حاقق نفسه في صحة نيته في طلب العلم يخاف من مثل هذا، ويود أن ينجو كفافا

وفي (٧/ ٤٤٨): قال حماد بن سلمة: من طلب الحديث لغير الله تعالى مكر به.

وفي "صحيح مسلم" عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟

قلت: أنا. ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت.. الحديث[1]، فانظر كيف دفع حصين بن عبد الرحمن عن نفسه أن يظن به أنه كان في صلاة حتى لا يمدح بما لم يفعل، فأين هذا ممن يتعمد أن يحمل الناس على مدحه بما ليس فيه أو ما لم يفعله؟ وأين هذا ممن يظهرون الانكسار بخفض الصوت، وطأطأة الرأس، فزادت بهم الفتنة، وما هكذا كان السلف، قال ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص (٢٩٠): عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه، كأنه مجنون، وذكر بإسناده عن محمد بن عبد الله القرشي عن أبيه قال: نظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى شاب قد نكس رأسه، فقال: يا هذا! ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق.

وعن كهمس بن الحسن أن رجلا تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن، فلكزه عمر، أو قال: لكمه، وعن عاصم بن كليب الجرمي قال: لقي أبي عبد

---

(١) رواه مسلم(٢٢٠)، وهو في البخاري دون هذه القصة.

الرحمن بن الأسود وهو يمشي ، وكان إذا مشى يمشي جنب الحائط متخشعا هكذا ، وأمال أبو بكر عنقه شيئا ، فقال: أبي: مالك إذا مشيت مشيت إلى جنب الحائط؟ أما والله إن عمر إذا مشى لشديد الوطء على الأرض جهوري الصوت ، وعن الشفاء بنت عبد الله ، ورأت فتيانا يقصرون في المشي ، ويتكلمون رويدا ، فقالت: ما هذا؟ قالوا: نساك

قالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا ، قال ابن الجوزي: وقد كان السلف يسترون أحوالهم ، ويتصنعون بترك التصنع ، وفي السير(٨/ ٤٣٩): وقال الفيض: قال لي الفضيل: لو قيل لك يا مرائي غضبت ، وشق عليك ، وعسى ما قيل لك حق ، تزينت للدنيا وتصنعت ، وقصرت ثيابك ، وحسنت سمتك ، وكففت أذاك حتى يقال: أبو فلان عابد ، ما أحسن سمته ، فيكرمونك ، وينظرونك ، ويقصدونك ، ويهدون إليك ، مثل الدرهم الستوق ، لا يعرفه كل أحد ، فإذا قشر قشر عن نحاس ، وهو في الحلية(٨/ ٩٤)وفيه زيادة في آخره: وإنما عرفوك بالله ، لولا ذلك لهنت عليهم كما هان عليهم الفاسق ، لم يكرموه ، ولم يقضوه ، ولم يوسعوا له المجلس ، وفي السير أيضا (٩/ ٢٠٧): قال ابن مهدي: ما هو - يعني الغرام بطلب الحديث - إلامثل لعب الحمام ونطاح الكباش .

فقال الذهبي: صدق والله ، إلا لمن أراد به الله ، وقليل ما هم ، وفي السير أيضا (١٨/ ١٩٢): قال الذهبي: من طلب العلم للعمل كسره العلم ، وبكى على نفسه ، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء تحامق واختال ، وازدرى بالناس ، وأهلكه العجب ، ومقتته الأنفس ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ ، أي دسسها بالفجور والمعصية اهـ .

* * * * *

إعجاب الطالب بعقله

إن التوحيد يُبنى على ركنين أساسيين، وهما عبادة الله وحده والاستعانة به وحده، وذلك في قول الله تعالى في سورة الفاتحة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾، فلا يُعبد إلا الله، ولا يستعان إلا به عز وجل، والعلم هو من أعظم أنواع العبادة والقربة إلى الله عز وجل، فالعبد فيه أحوج إلى الاستعانة بربه عز وجل لكي يرزقه العلم والفقه في الدين، قال الله تعالى: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾، وفي الصحيحين من حديث معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»[1]، فالعلم رزق من الله عز وجل، فمن اعتمد على نفسه أو عقله في تحصيل العلم لم يوفق، فاغترار طالب العلم بعقله ضياع وضلال، وهو من أعظم الآفات التي تعرض لطالب العلم، فتكون عاقبة أمره خسرا، والعياذ بالله، وقد كان أناس في غاية الذكاء والفهم، وقد عرفوا الحق واتبعوه، وطلبوا العلم مدة من الزمان، ثم لحقهم الدبور، فأعجبوا بعقولهم، فانتكسوا، فمنهم من ابتلي بالتميع والانحلال، وترك الالتزام، ومنهم من تزندق، وقد رأيت بعضهم كان في الجامعة الإسلامية بمدينة رسول الله ﷺ، وصاحب كبار أهل العلم، وانتفع منهم، ثم أعجب بعقله، فزاغ، والعياذ بالله، فأخذ يشكك في كثير من أمور الدين المعلومة منه بالضرورة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فينبغي لطالب العلم أن يكون مستعينا بالله في طلبه للعلم وفي جميع الأمور، وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾.

* * * * *

---

(١) رواه البخاري(٧١)، ومسلم(١٠٣٧).

اتخاذ مذاهب العلماء وسيلة لتمييع الحق

إن الحق واحد لا يتعدد، فالله عز وجل يقول: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾، ومع أن الحق واحد إلا أن أهل العلم اختلفوا اختلافا كثيرا، فأكثر المسائل الشرعية نجد فيها أقوالا كثيرة لأهل العلم من الصحابة فمن بعدهم، وكل أهل العلم المعتبرين يجب علينا أن نحسن الظن بهم، ونعتقد أنهم لم يختلفوا اتباعا لهوى أو عصبية، بل نظن بهم أنهم جميعا قد أرادوا الحق، وهم قد استوفوا شروط الاجتهاد، ومع ذلك فالحق واحد، فلو كانت المسألة فيها خمسة أقوال مثلا، فالحق في واحد من هذه الأقوال الخمسة، والأقوال الأربعة الأخرى تعتبر خطأ، وأصحابها معذورون مأجورون على اجتهادهم ورغبتهم في بلوغ الحق، كما في الصحيحين من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا حكم الحاكم، فاجتهد، ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم، فاجتهد، ثم أخطأ فله أجر**»[1]، ويجب على طالب العلم أن يختار من أقوال أهل العلم ما يراه أقرب للدليل، وأن يعبد الله به، وليس ما يراه أقرب لهواه، ولا يجوز أن يكون اختلاف أهل العلم سببا في تمييع الحق، قال ابن مفلح في الآداب الشرعية(١/ ١٦٣): ومن التزم مذهبا أنكر عليه مخالفته بلا دليل ولا تقليد سائغ ولاعذر، كذا ذكر في الرعاية هذه المسألة، وذكر في موضع آخر: يلزم كل مقلد أن يلتزم بمذهب معين في الأشهر، ولا يقلد غير أهله، وقيل بلا ضرورة.

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله بعد أن ذكر المسألة الأولى من كلام ابن حمدان رحمه الله: هذا يراد به شيئان: أحدهما: أن من التزم مذهبا معينا، ثم

---

(١) رواه البخاري(٧٣٥٢)، ومسلم(١٧١٦)

فعل خلافه من غير تقليد لعالم آخر أفتاه ولا استدلال بدليل يقتضى خلاف ذلك ، ومن غير عذر شرعي يبيح له ما فعله فإنه يكون متبعا لهواه عاملا بغير اجتهاد ولا تقليد فاعلا للمحرم بغير عذر شرعي ، وهذا منكر ، وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخ نجم الدين ، وقد نص الإمام رضي الله عنه وغيره على أنه ليس لأحد أن يعتقد الشيء واجبا أو حراما ، ثم يعتقده غير واجب ولا حرام بمجرد هواه ، مثل أن يكون طالبا لشفعة الجوار ، فيعتقد أنها حق له ، ثم إذا طلبت منه شفعة الجوار اعتقد أنها ليست ثابتة ، أو مثل من يعتقد إذا كان أخا مع جد أن الإخوة تقاسم الجد ، فإذا صار جدا مع أخ اعتقد أن الجد لا يقاسم الإخوة ، وإذا كان له عدو يفعل بعض الأمور المختلف فيها كشرب النبيذ المختلف فيه ولعب الشطرنج وحضور السماع أن هذا ينبغي أن يهجر وينكر عليه ، فإذا فعل ذلك صديقه اعتقد أن ذلك من مسائل الاجتهاد التي لا تنكر ، فمثل هذا ممن يكون في اعتقاده حل الشيء وحرمته ووجوبه وسقوطه بحسب هواه ، وهو مذموم مجروح ، خارج عن العدالة ، وقد نص أحمد وغيره على أن هذا لا يجوز ، أما إذا تبين له رجحان قول على قول إما بالأدلة المفصلة إن كان يعرفها أو يفهمها ، وإما بأن يرى أحد الرجلين أعلم بتلك المسألة من الآخر ، وهو أتقى لله فيما يقوله ، فيرجع عن قول إلى قول لمثل هذا ، فهذا يجوز ، بل يجب ، وقد نص الإمام أحمد رضي الله عنه على ذلك ، وقال الشيخ تقي الدين في المسألة الثانية: العامي هل عليه أن يلتزم مذهبا معينا يأخذ بعزائمه ورخصه؟

فيه وجهان لأصحاب أحمد ، وهما وجهان لأصحاب الشافعي ، والجمهور من هؤلاء وهؤلاء لا يوجبون له ذلك ، والذين يوجبونه يقولون إذا التزمه لم يكن له أن يخرج عنه مادام ملتزما له أو مالم يتبين له أن غيره أولى بالالتزام منه ، ولا ريب أن التزام المذاهب والخروج عنها إن كان لغير أمر ديني مثل أن يلتمس مذهبا لحصول عرض دنيوي من مال أو جاه ونحو

ذلك فهذا مما لا يحمد عليه ، بل يذم عليه في نفس الأمر ، ولو كان ما انتقل إليه خيرا مما انتقل عنه ، وهو بمنزلة من يسلم لا يسلم إلا لغرض دنيوي أو يهاجر من مكة إلى المدينة إلى امرأة يتزوجها أو دنيا يصيبها . انتهى المراد منه ، وهذا كثير في العامة منتشر بينهم ، فإن أحدهم يتخير من الفتاوى ما يناسب هواه ، وهذا وإن كان سيئا ، إلا أن الأسوأ منه تغيير من عنده علم الفتيا لموافقة أهواء الناس ، ولأجل الدنيا والجاه ، فكم ممن ينسبون إلى علم كانوا يفتون بحل أشياء أو حرمتها ، فلما طلب منهم خلاف ما يقولون به غيروا من أجل بقائهم في مناصبهم ، وهؤلاء هم علماء السوء ، قطع الله دابرهم ، ومن طلبة العلم من يتخذ اختلاف العلماء في مسألة من المسائل سبيلا ليهرب من قوله (لا أدري) فيما لا يعلم ، فيقول هذه مسألة خلافية ليموه على السامع ، وما هكذا شأن الصادقين من طلاب العلم ، والله المستعان ، فينبغي التفطن لهذه الآفة ، عافانا الله وإخواننا المسلمين وطلاب العلم من جميع الآفات .

* * * * *

إضاعة بعضهم الحق بالغلو في مداراة الناس

إن مداراة الناس وإحسان معاملتهم والخروج من سخطهم وعدم التعرض لمقتهم وأذاهم لمن الحكمة والسياسة الشرعية ، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة أن رجلا استأذن على النبي ﷺ ، فلما رآه قال: «**بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة**» ، فلما جلس تطلق[١] النبي ﷺ في وجهه ، وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل ، قالت له عائشة: يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة متى عهدتني فاحشا؟**» «**إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره**»[٢] ، قال الحافظ في الفتح: وقال القرطبي: في الحديث جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك من الجور في الحكم والدعاء إلى البدعة مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ، مالم يؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى ، ثم قال تبعا لعياض: والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معا ، وهي مباحة ، وربما استحبت ، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا ، والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته ، ومع ذلك فلم يمدحه بقول فلم يناقض قوله فيه فعله ، فإن قوله فيه قول حق ، وفعله معه حسن عشرة ، فيزول مع هذا التقرير الإشكال بحمد الله تعالى اهـ[٣] .

قلت: وأما اليوم فنجد كثيرا من طلاب العلم ما بين مُفرِّط ومُفْرِط ، فإما أن يجامل الناس على حساب الحق والدين طلبا للمنزلة في نفوسهم وإرضاء لهم على حساب الدين ، وإما أن يسيء معاملة الناس ولا يحسن تبليغ الدين ، فأما الصنف الأول فأذكرهم بقول النبي ﷺ «**من التمس رضاء**

---

(١) التطلق: الانبساط وعدم العبوس .

(٢) رواه البخاري(٣١٣٢) ، ومسلم(٢٥٩١) وغيرهما .

(٣) فتح الباري(١٠/ ٤٥٤) .

الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس» [١] وأما الصنف الآخر فأذكرهم بقول النبي ﷺ حين بعث أبا موسى ومعاذا إلى اليمن«**يسرا، ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**» [٢]

وفي حديث آخر: «**يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا**» [٣]، والنجاة والفلاح للذي يأخذ ويعمل بالنصوص كلها، ولا يعمل بجانب منها ويترك الآخر، وطالب العلم يحسن معاملة الناس ويداريهم في حدود الشرع والتزام الحق، والمعصوم من عصم الله، نسأل الله التوفيق.

* * * * *

(١) رواه الترمذي(٢٤١٤) وغيره، وإسناده صحيح.
(٢) رواه البخاري(٣٠٣٨)، ومسلم(١٧٣٢) وغيرهما.
(٣) رواه البخاري(٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤) وغيرهما من حديث أنس.

طلب العلم للدنيا

من الآفات التي تعرض لكثير ممن يطلبون العلم حب الدنيا ، بل وربما كان مطلبهم الرئيس طلب المنصب والوظيفة أو المال ، قال الإمام النووي رحمه الله في كتاب التبيان في آداب حملة القرآن ص(٣١): ينبغي أن لا يقصد به توصلا إلى عرض من أعراض الدنيا من مال أو رياسة أو وجاهة أو ارتفاع على أقرانه أو ثناء عند الناس أو صرف وجوه الناس إليه أو نحو ذلك ، ولا يشين المقرئ إقراءه بطمع في رفق يحصل له من بعض من يقرأ عليه ، سواء كان الرفق مالا أو خدمة ، وإن قل ، ولو كان على صورة الهدية التي لولا قراءته عليه لما أهداها إليه ، قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِه مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من أعراض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»** . رواه أبو داود بإسناد صحيح[1] وعن أنس ، وحذيفة ، وكعب بن مالك رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: **«من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يكاثر به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار»** . رواه الترمذي من رواية كعب بن مالك ، وقال: أدخله الله النار[2] ، وقال الشوكاني رحمه الله في كتاب "أدب الطلب ومنتهى الأرب" ص(١٦٦) بعد ذكر حال طائفتين من طلبة العلم: وبين هاتين الطائفتين طائفة ثالثة ليست من هؤلاء ولا من هؤلاء ، جعلوا العلم مكسبا من مكاسب الدنيا ، ومعيشة من معايش أهله ، لا غرض لهم فيه إلا إدراك منصب من مناصب أسلافهم ، ونيل رئاسة من الرئاسات التي كانت لهم ، كما نشاهده في غالب البيوت المعمورة بالقضاء أو الإفتاء أو الخطابة أو الكتابة ، أو ما هو شبيه بهذه الأمور ، فإن من كان طالبا للوصول إلى شيء من هذه الأمور ذهب إلى مدارس العلم يتعلم ما

---

(١) وقد أعل بالوقف ، وتمام الكلام عليه في تخريجي لكتاب التبيان ، والله أعلم .

(٢) وهو حديث ضعيف ، ولمعرفة طرقه راجع تخريجي لكتاب التبيان ، والله الموفق .

يتأهل به لما يطلبه ، وهو لايتصور البلوغ إلى الثمرة المستفادة من العلم ، والغاية الحاصلة لطالبه فيكون ذهنه كليلا ، وفهمه عليلا ، ونفسه خائرة ، ونيته خاسرة ، بل غاية تصوره ، ومعظم فكرته في اقتناص المنصب والوصول إليه ، فيخدم في مدة طلبه واشتغاله أهل المناصب ، ومن يرجو منهم الإعانة على بلوغ مراده أكثر مما يخدم العلم ، ويتردد إلى أبوابهم ، ويتعثر في مجالسهم ، ويذوق به من الإهانة ما فيه أعظم مرارة ، ويتجرع من الغصص ما يصغر قدر الدنيا بالنسبة إليه ، فإذا نال ذلك المنصب ضرب بالدفاتر وجه الحائط ، وألقاها خلف السور لعدم الباعث عليها من جهة نفسه والمنشط على العلم والمرغب فيه[1] فهذا هو شبيه بمن يتعلم مهنة من المهن ، ويتدرب في حرفة من الحرف ، فيقصد أهلها حتى يدركها ، ويكون فيها أستاذا ، ثم يذهب إلى دكان من الدكاكين ، فيعتاش بتلك الحرفة ، وليس هو من أهل العلم في ورد ولا صدر ، ولا ينبغي أن يكون معدودا منهم ، وإن ارتسم في ذهنه منه رسوم ، فهو أزهد الناس فيها ، وأجفاهم لها ، وأقلهم احتفالا بها ، ولا فائدة في تعلمه راجعة إلى الدين قط ، بل غاية ما استفاده منه العلم وأهله تعريضه وتعريضهم للإهانة عند أهل الدنيا وإيقاعه وإيقاعهم في يد من لا يعرف للعلم قدرا ، ولا يعرف له ذكرا ، ولا يقيم له وزنا ، كما يشاهد من المتعلقين بالأعمال الدولية ، فإنهم يتلاعبون بطلبة المناصب الدنيوية غاية التلاعب ، ويعرضونهم للإهانة مرة بعد أخرى ، ويتلذذون بذلك ، ويبتهجون ، لأنهم يظنون أنها قد ارتفعت طبقتهم عن طبقات أهل العلم ، وحكموا تارة فيهم بالولاية ، وتارة بالعزل ، وتمرغوا على عتباتهم مرة بعد مرة ، فبهذه الوسيلة دخل على أهل العلم بما يصنعه هؤلاء من هذه الهنات الوضيعة ، والفعلات الشنيعة ما تبكى عيون العلم وأهله ، وتقوم عليه النواعي ، ويغضب له كل من له حمية دينية وهمة علية ، ولو علم أولئك

---

(١) كان الإمام الشوكاني رحمه الله يحكي حال كثير ممن يطلبون العلم في زماننا لنيل وظيفة دينية ، فتجد أحدهم إذا كان في فترة عمله يحضر إلى المساجد للصلاة بالناس وإلقاء الدروس ، فإذا كان في عطلة رسمية ترك صلاة الجماعة والدروس ، وإذا أحيل إلى المعاش ترك كل ذلك ، وهل في ترك الصلاة والدعوة إلى الله عطلة أو إجازة؟ ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

المغـرورون لم يبـتهجوا بمـن قصـدهم مـن هـؤلاء الـنوكاء[١] ، فإنهم ليسوا من أهل العـلم ، ولا بينهم وبينه علاقة ، ولا فرق بينهم وبين من يطلب الأعمال الدولية التي لا تعلـق لهـا بالعـلم ، ومـن هـذه الحيثية تنازل منصب العلم ، وتهاون الناس به ، ، لأنهـم يـرون رجـلا قـد لبس لباس أهل العلم ، وتزيا بزيهم ، وحضر مجالسهم ، ثم ذهـب إلى مجـالس أهـل الدنيا ومن لهم قدرة على إيصال أهل الأعمال الدنيوية إليها مـن وزيـر أو أمـير ، فتصـاغر لهـم ، وتذلـل ، وتهاون ، وتحقر ، حتى يصير في عداد خدمهـم ، ومـن هـو في أبوابهـم ، ثـم أعطـوه منصـبا مـن المناصب ، فعمل على ما يـريدونه منه ، وإن خالف الشرع ، واعتمد ما يرسمونه لـه وإن كان طاغوتا بحتا[٢] ، فـيظن مـن لا عـلم عنده بحقائق الأمور أن أهل العلم كلهم هكذا ، وأنهم ينسلخون مـن العـلم إذا ظفـروا بمنصـب مـن المناصب هذا الانسلاخ ، ويمسخون هذا المسخ ، ويعـود أمـرهم إلى هـذا المعـاد ، فـيزهد في العلم وأهله ، وتنفر عنه نفسه ، وتقل فيه رغبـته ، ويؤثـر الحـرف الدنيوية عليه ، ليربح السلامة من المهانة التي رآها نازلة بهذا المشـؤوم الجالب على نفسه وعلى أهل العلم ما جلب من الذل والصغار ، وإذا كان مـا جـناه هـؤلاء الـنوكاء على العلم وأهله بالغا إلى هذا الحد عند سائر الناس ، فما ظـنك بمـا يعـتقده فيهم من يطلبون من المناصب ، بعد أن شاهد منهم ما يشاهده من الخضـوع والذلـة والانسـلاخ عـن الشرع إلى ما يريدونه منه وبذل الأموال لهم على ذلـك ، ومهـاداتهم بأفخـر الهدايا ، والوقوف على ما يطلبونه منه على أي صفة تراد منهـم .

وينضـم إلى هذا خلوهم عن العلم ، وجهلهم لأهله الذين هم أهله ، فيظنون أن أولـئك الذيـن قصـدوهم ، وتعـثروا عـلى أبوابهـم هـم رؤوس أهله ، لما يشاهدونه علـيهم من الهيئة واللباس الفاخر الذي لا يجدونه عند المشتغلين بالعلم ، فهل تراهم

---

(١) كذا بالأصل ، ولعلها تحرفت من (النوكى) ، وهو جمع أنوك ، وهو الأحمق .

(٢) رحـم الله الإمـام الشـوكاني ، فكأنـه يصف علماء السوء في زماننا الذين أصبحوا لعبة في يد أصحاب السلطة يحركونها كمـا يشـتهون ، لا يرفضون لهم طلبا ، وإن كان فيه تحريم ما شرعه الله كمن حرم ختان الإناث ولبس النقاب ، وهاجموا السنة وأهلها ، وكذلك أباحوا ما حرم الله من الربا والغناء والتبرج والفجور باسم الفن ، نسأل الله السلامة والعافية .

بعد هذا يميلون إلى ما يقوله أهل العلم ، وينزجرون بما يوردونه عليهم من الزواجر الشرعية المتضمنة لإنكار ما هو منكر ، والأمر بما هو معروف ، والتخويف لهم عن مجاوزة حدود الله؟! ، هيهات أن يصغوا لهذا سمعا ، أو يفتحوا له طرفا ، فإلى الله المشتكى ، وعليه المعول ، فهذا أمر وقع فيه أهل العصور الأول فالأول .

وما أحق أهل العلم الحاملين لحجج الله ، المرشدين لعباده إلى شرائعه أن يطردوا هؤلاء عن مجالسهم ، ويبعدوهم عن مواطن تعليمهم ، وأن لا يبذلوا العلم إلا لمن يقدره حق قدره ، وينزله منزلته ، ويطلبه لذاته ، ويرغب فيه لشرفه ، ويعتقد أنه أشرف مطلب من مطالب الدين والدنيا ، وأنه يصغر عنده الملك فضلا عما هو دونه . انتهى ، وأما حال أئمتنا السابقين رحمهم الله في هذا الباب ، فكانوا يفرون من القضاء فرار أحدهم من الأسد ، فمن ذلك: ما في السير(١١/ ٣٩٠): قال أبو عمر الكندي: كان حرملة فقيها ، لم يكن بمصر أحد أكتب عن ابن وهب منه ، وذلك أن ابن وهب أقام في منزلهم سنة وأشهرا مستخفيا من عباد إذا طلبه ليوليه القضاء بمصر ، أخبرني بذلك يحيى بن أبي معاوية ، وفي السير أيضا(٥/ ٤٠٦): وقال زائدة: امتنع منصور من القضاء ، فدخلت عليه ، وقد جيء بالقيد ليقيد ، فجاءه خصمان ، فقعدا ، فلم يسألهما ولم يكلمهما ، فقيل ليوسف بن عمر: لو نثرت لحمه لم يل القضاء ، فتركه . [١] ، وكان أحدهم يهجر صاحبه من أهل العلم إذا ولي القضاء .

ففي تهذيب التهذيب في ترجمة وكيع: قال محمد بن عامر المصيصي سألت أحمد: وكيع أحب إليك أو يحيى بن سعيد؟ فال: وكيع ، قلت: لم؟ . فال: كان وكيع صديقا لحفص بن غياث ، فلما ولي القضاء هجره ، وكان يحيى بن سعيد صديقا لمعاذ بن معاذ ، فلما ولي القضاء لم يهجره ، وحكى محمد بن علي الوراق عن أحمد مثل ذلك سواء في وكيع وابن مهدي ، وزاد: قد عرض على وكيع القضاء فامتنع منه اهـ ، وفي الميزان في ترجمة ابن علية: كان ابن المبارك يتجر ، ويقول: لولا خمسة ما تجرت: السفيانان ، وفضيل ، وابن السماك ، وابن علية ، فيصلهم ، فقدم سنة ، فقيل له: قد

---

(١) ولنا عود مع هذا في باب: تهافت كثير من الطلبة والمشتغلين بالعلم على المناصب خلافا للسلف .

ولي ابن علية القضاء ، فلم يأته ولم يصله ، فركب ابن علية إليه ، فلم يرفع لـه
عبد الله رأسـا ، فانصـرف ، فـلما كـان مـن غد كتب إليه رقعة يقول: قد كنت منـتظرا لـبرك ، وجئـتك ، فـلم تكلمني ، فما رأيت مني؟ فقال ابن المبارك: يأبى هذا الرجل إلا أن نقشر لـه العصا ، ثم كتب إليه:

يـا جـاعل العـلم لـه بازيـاً	:::	يصـطاد أمـوال المسـاكين
احتلـت للدنـيا ولذاتهـا	:::	بحـيلة تذهـب بـالدين
فصـرت مجـنونا بهـا بعدمـا	:::	كنـت دواء لـلمجانين
أيـن روايـاتك في سـردها	:::	لـترك أبـواب السـلاطين
أيـن روايـاتك فـيما مضـى	:::	عـن ابـن عـون وابـن سـيرين
إن قلـت أكرهـت فـذا بـاطل	:::	زل حمـار العـلم في الطـين

فلما وقف على هذه الأبيات قام من مجلس القضاء ، فوطئ بساط الرشيد .

وقال: الله الله ، ارحم شيبتي ، فإني لا أصبر على الخطأ .

قـال: لعـل هذا المجنون أغرى عليك ، ثم أعفاه ، فوجه إليه ابن المبارك بالصرة ، ومـع مـا كـان عليه أئمة السلف من الزهد في الدنيا والمناصب والرئاسة ، فقد أتتهم وهـي راغمـة تصـديقا لقـول الـنبي ﷺ **«من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقـره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب لـه، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله لـه أمـره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»** . [1] ، وفي السـير (٨/ ٣٨٤): عن أشـعث بـن شـعبة المصيصـي قـال: قـدم الرشـيد الـرقة ، فـانجفل الناس خلف ابن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج مـن قصـر الخشـب ، فقالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم ، قالت: هذا والله الملك ، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان .

وفي السـير(٨/ ٣٧٧): في تاريخ ابن جرير بإسناده أن الرشيد قال: والله ما أدري

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٥) ، وأحمد(٥/ ١٨٣) وغيرهما ، وإسناده صحيح .

مـا آمر في هذا العمري[1] أكره أن أقدم عليه ، ولـه سلف وإني أحب أن أعرف رأيه فيـنا ، فقال عمر بن بزيع والفضل بن الربيع: نحن لـه ، فخرجا من العرج إلى موضع لـه بالـبادية في مسـجده ، فأناخـا ، وأتـياه على زي الملوك في حشمة ، فجلسا إليه ، فقـالا: نحـن رسـل مـن وراءنا من المشرق ، يقولون لك: اتق الله إن شئت فانهض . فقـال: ويحكمـا ، فـيمن ، ولـمن؟ قـالا: أنـت ، قـال: والله ، مـا أحب أني لقيت الله بمحجمـة دم مسـلم وإن لـي مـا طلعت عليه الشمس ، فلما أيسا منه ، قالا: إن معنا عشـرين ألفـا تسـتعين بهـا ، قـال: لا حاجـة لـي بها . قالا: أعطها من رأيت ، قال: أعطياها أنتما . فلما أيسا منه ذهبا ، ولحقا بالرشيد . فحدثاه ، فقال: ما أبالي ما صنع بعـد هذا ، فبينا العمري في المسعى إذا بالرشيد يسعى على دابة ، فعرض لـه العمري فـأخذ بـلجامه ، فـأهووا إلـيه ، فكفهم الرشيد ، وكلمه ، فرأيت دموع الرشيد تسيل اهـ ، فـتأمل أثـر العـالم فـيهم حـين زهـد في دنـياهم ، نسأل الله عز وجل أن يرزقنا القـناعة وأن يغنيـنا مـن فضـله ، فمن أعظم البلاء على الطالب اليوم فقده الأسوة ، فإننا لا نكاد نجد الرؤوس إلا وكثير منهم حريصون على المال والدنيا ، ومن لم يؤتها فهـو معظـم لـمن حصـلها ، حريص على صحبتهم في وجاهات مزيفة ، بخلاف حال سـلفنا رحمهـم الله الذيـن كثر فيهم من يتأسى به ، ففي الحلية(٢/ ٣٤٩): عن جعفر بـن سـليمان قـال: اجـتمع مالك بن دينار ومحمد بن واسع ، قال مالك: إني لأغبط رجلا معه دينه لـه قوام من عيش راض عن ربه عز جل ، فقال محمد بن واسع: إني لأغـبط رجـلا معـه ديـنه لـيس معه شيء من الدنيا ، راض عن ربه ، قال: فانصرف القوم وهم يرون أن محمدا أقوى الرجلين .

ومـا أصعب الإخلاص على النفس: قال سلمة بن كهيل: ما رأيت أحدا يطلب بعلمه ما عند الله تعالى إلا ثلاثة: عطاء ، وطاووسا ، ومجاهدا .

وحـب الدنـيا مـن أعظـم الآفات التي تعرض لطالب العلم ، أسأل الله أن يقينا وإخوانـنا المسـلمين فتـنة الدنـيا وعذاب الآخرة ، وقد كان السلف يبذلون من مالهم

(١) العمري هو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

للدين ، فمن أمثلة ذلك ما في الحلية(٥/ ٣١): كان زبيد الأيامي مؤذن مسجده ، فكان يقول للصبيان: يا صبيان تعالوا ، فصلوا أهب لكم الجوز ، قال: فكانوا يجيئون ، ويصلون ، ثم يحوطون حوله ، فقلنا له: ما تصنع بهذا؟.

قال: وما علي؟ أشترى لهم جوزا بخمسة دراهم ، ويتعودون الصلاة ، وفي سنن الدارمي(٥٧٢): عن عبد الأعلى عن الحسن أنه دخل السوق ، فساوم رجلا بثوب ، فقال: هو لك بكذا وكذا ، والله لو كان غيرك ما أعطيته ، فقال: فعلتموها؟ فما رؤي بعدها مشتريا من السوق ، ولا بائعا حتى لحق بالله عز وجل ، وعن أبي معشر عن إبراهيم: أنه كان لا يشتري ممن يعرفه ، وعن عبيد بن الحسن قال: قسم مصعب ابن الزبير مالا في قراء أهل الكوفة حين دخل شهر رمضان ، فبعث إلى عبد الرحمن ابن معقل بألفي درهم ، فقال له: استعن بها في شهرك ، فردها عبد الرحمن بن معقل ، وقال: لم نقرأ القرآن لهذا ، وعن عبيد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى قال لعبد الله بن سلام رضي الله عنه: من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون بما يعلمون ، قال: فما ينفي العلم من صدور الرجال؟ قال الطمع ، وفي الحلية(٥/ ١٣٨): عن خالد بن دريك قال: خرج ابن محيريز إلى بزاز يشتري منه ثوبا ، والبزاز لا يعرفه ، قال: وعنده رجل يعرفه ، فقال: بكم هذا الثوب؟ قال الرجل: بكذا وكذا ، فقال الرجل الذي يعرفه: أحسن إلى ابن محيريز ، فقال ابن محيريز: إنما جئت أشتري بمالي ، ولم أجئ أشتري بديني ، فقام ، ولم يشتر . ورواه أبو نعيم من طرق أخرى ، وفي الحلية (٦/ ٣٧٠): عن سفيان الثوري قال: لما أردت أن أطلب العلم قلت: يارب إنه لا بد لي من معيشة ، ورأيت العلم يدرس ، فقلت: أفرغ نفسي لطلبه ، قال: وسألت ربي الكفاية والتشاغل لطلب العلم ، فما رأيت إلا ما أحب إلى يومي هذا ، وفي الحلية(٨/ ١٦٨): قيل لعبد الله بن المبارك: من أئمة الناس؟ قال: سفيان وذووه ، قيل له: من سفلة الناس؟ قال: من يأكل بدينه .

* * * * *

طلب الجاه بالعلم
والحرص على الشهرة والرئاسة

من أعظم الآفات التي تعترض طالب العلم الحرص على الشهرة والشرف وحسن الصيت والذكر الحسن، ففي سنن الترمذي وغيره عن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[(١)] قال الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: وليتق المفاخرة والمباهاة به (يعني العلم)، وأن يكون قصده في طلب الحديث نيل الرئاسة واتخاذ الأتباع وعقد المجالس، فإن الآفة الداخلة على العلماء أكثرها من هذا الوجه[(٢)]، وفي الحديث المرفوع: «**لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتحتازوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار، النار**»[(٣)]، وعن أبي إدريس الخولاني قال: من يبتغ العلم. أو قال: الأحاديث لا يبتغيها إلا ليحدث بها لم يجد ريح الجنة، وقال أبو قلابة: إذا أحدث الله لك علما، فأحدث له عبادة، ولا يكن همك أن تحدث به، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتتخذ سنة مبتدعة يجري عليها الناس، فإذا غير منها شيء قيل: قد غيرت السنة، قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثر قراؤكم، وقل فقهاؤكم، وكثر أمراؤكم، وقل أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير الدين، وفي الحلية(٤/ ٢١٩): عن الأعمش قال: كان إبراهيم(يعني النخعي) يتوقى الشهرة، فكان لا يجلس إلى الإسطوانة، وكان إذا سئل عن مسألة لم يزد عن جواب مسألته، فأقول له في الشيء يسأل عنه: أليس فيه كذا وكذا؟ فيقول: إنه لم يسألني عن هذا، وفي الحلية أيضا(٤/ ٨٤): عن ميمون بن مهران قال: إن هذا القرآن قد خلق في صدر كثير من

---

(١) رواه الترمذي(٢٣٧٦)، وإسناده صحيح

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع(١/ ٨٥).

(٣) رواه ابن ماجه(٢٥٤)وغيره من حديث جابر رضي الله عنه، وفي إسناده عنعنة ابن جريج وأبي الزبير، وله طرق لا تخلو من مقال، وقد صححه شيخنا الألباني رحمه الله.

الناس[1] ، والتمسوا ما سواه من الأحاديث ، وإن فيمن يبتغ هذا العلم من يتخذه بضاعة يلتمس بها الدنيا ، ومنهم من يريد أن يشار إليه ، ومنهم من يريد أن يماري به ، وخيرهم من يتعلمه ، ويطيع الله عز وجل ، وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: إنما يطلب الحديث ليتقى الله به ، فلذلك فضل على غيره من العلوم ، ولولا ذلك كان كسائر الأشياء .

وعن حماد بن سلمة رحمه الله قال: من طلب الحديث لغير الله مكر به .

وعن مسعر قال: من أراد الحديث للناس فليجتهد ، فإن بلاءهم شديد ، ومن أراده لنفسه فقد اكتفى . وكان شعبة حاضرا فقال: هذا والله ينبغي أن يكتب .

وفي الحلية (٢/ ٢٧١): عن ثابت البناني قال: قال محمد بن سيرين: يا أبا محمد لم يكن يمنعنى من مجالستكم إلا مخافة الشهرة .

وفي الحلية (٥/ ١٤٠): عن عبد الواحد بن موسى أبي معاوية قال: سمعت ابن محيريز يقول: اللهم إني أسألك ذكراً خاملاً ، وفي الحلية أيضا (٥/ ١٤١): عن ضمرة عن عمر بن عبد الملك الكناني قال صحب ابن محيريز رجلا في الساقة في أرض الروم ، فلما أردنا أن نفارقه قال له ابن محيريز: أوصني ، قال: إن استطعت أن تَعْرِف ، ولا تُعرف فافعل . وإن استطعت أن تمشي ، ولا يمشى إليك فافعل ، وإن استطعت أن تَسأل ، ولا تُسأل فافعل .

وفي الحلية (٨/ ١٩ - ٢٠): عن إبراهيم بن أدهم قال: لم يصدق الله من أحب الشهرة .

وفي الحلية (٨/ ٢٥٥): عن أبي إسحاق الفزاري قال: إن من الناس من يحب الثناء عليه وما يساوى عند الله جناح بعوضة .

وفي الحلية(٨/ ٣٤٣): عن بشر بن الحارث قال: لا أعلم رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه ، وافتضح ، وقال أيضا: لا يجد حلاوة الآخرة رجل

---

(١) خلق الثوب: يعني بلي ، والقرآن لا يبلى ، ولعله يعني أثر القرآن في قلوبهم ، والله أعلم .

يجب أن يعرفه الناس .

وفي الحلية (٩/ ٦): عن عبد الرحمن بن مهدي قال: فتنة الحديث أشد من فتنة المال ، وفتنة الولد تشبه فتنته ، كم من رجل يظن به الخير قد حمله فتنة الحديث على الكذب .

وعن إبراهيم التيمي قال: من طلب العلم لله أتاه الله منه ما يكفيه .

وعن طاوس: ما تعلمت فتعلمه لنفسك ، فإن الأمانة والصدق قد ذهبا من الناس .

وقال الثوري: زينوا الحديث بأنفسكم ، ولا تزينوا بالحديث .

وعنه قال: إنما يتعلم العلم ليتقى الله به ، وإنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى الله عز وجل به[1] .

وفي السير (٦/ ٣٦١): قال هشام بن حسان: ليت ما حفظ عني من العلم في أخبث تنور بالبصرة ، وليت حظي منه لا لي ولا علي .

قال الذهبي: ليس مراده ذات العلم ، فهذا لا يقوله مسلم ، وإنما مراده التعليم ، والقصد بالعلم . ألا تراه كيف يقول: ليت حظي منه لا لي ولا علي؟

قال الذهبي رحمه الله في الميزان (٢/ ٤١٩) في ترجمة أبي الزناد: قال الليث: رأيت أبا الزناد ، وخلفه ثلاثمائة تابع ، من طالب علم وفقه وشعر وصنوف ، ثم لم يلبث

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٥٢ - ٦٦٥) بتصرف .

وهذا الباب كثر الواقعون فيه من طلاب العلم فهو مرض خطير يصيب القلب في مقتل ، وصاحبه لا يدري ، وهو يحسب أنه يحسن صنعا ، فنجد الواحد منهم يحرص على أن تكثر مؤلفاته ليكون له اسم بين الناس وينتشر صيته ، ولم يعد ذلك منكرا بين طلاب العلم في زماننا حتى إن أحدهم ليفتخر على أقرانه بأن أصحاب دور النشر يتمنون أن ينشروا كتبه ، وهكذا تشتعل هذه النار الخبيثة في قلوب طلاب العلم التي تحرق التعلم لله رب العالمين ، ونجد الطلبة يتنافسون فيما بينهم فيمن يستطيع أن يصل إلى رجل مشهور لكي يتوسط له في نشر شيء له ، ويتعلق قلبه بغير الله ، والطالب المخلص يضيع وسط هؤلاء المنكوبين فلا يدري أين الصواب ، فلقد لبس هؤلاء الحق بالباطل ، وألبسوا رغباتهم الدنيوية ثوب الدين ، نسأل الله عز وجل أن يطفأ نار هذه الفتنة ، وأن يأخذ بأيدي طلاب العلم المخلصين ، وأن يهدي المفتونين ، والله المستعان .

أن بقي وحده ، وأقبلوا على ربيعة .

وكان ربيعة يقول: شبر من حظوة خير من باع من علم .

قال الذهبي: اللهم اغفر لربيعة ، بل شبر من جهل خير من باع من حظوة ، فإن الحظوة وبال على العالم ، والسلامة في الخمول ، فنسأل الله المسامحة .

وفي السير (١١/ ٢١٦): قال أحمد بن حنبل: أريد أن أكون في شعب بمكة حتى لا أعرف ، قد بليت بالشهرة ، إني أتمنى الموت صباحا ومساء .

وقال المروزي: وذكر لأحمد أن رجلا يريد لقاءه ، فقال: أليس قد كره بعضهم اللقاء ، يتزين لي وأتزين له ، وقال: لقد استرحت ، ما جاءني الفرج إلا منذ حلفت أن لا أحدث ، وليتنا نترك ، الطريق ما كان عليه بشر بن الحارث .

فقلت له: إن فلانا قال: لم يزهد أبو عبد الله في الدراهم وحدها ، قال: زهد في الناس ، فقال: ومن أنا حتى أزهد في الناس؟ الناس يريدون أن يزهدوا في .

قال المروزي: قال لي أحمد: قل لعبد الوهاب: أخمل ذكرك ، فإني قد بليت بالشهرة .

وقال محمد بن الحسن بن هارون: رأيت أبا عبد الله إذا مشى في الطريق يكره أن يتبعه أحد .

قال الذهبي في السير (١١/ ٢٢٦): إيثار الخمول والتواضع وكثرة الوجل من علامات التقوى والفلاح .

وفي طبقات الحنابلة (٢/ ١٤): عن أحمد بن حنبل قال: قال سفيان: حب الرياسة أعجب إلى الرجل من الذهب والفضة ، ومن أحب الرياسة طلب عيوب الناس . أو عاب الناس أو نحو هذا .

وفي تلبيس إبليس ص(٣٩٤): عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه كان يقول: كنت كثيرا أسمع والدي أحمد بن حنبل يقول: رحم الله أبا الهيثم ، فقلت: من أبو الهيثم؟ فقال: أبو الهيثم الحداد ، لما مددت يدي إلى العقاب ، وأخرجت للسياط إذا

أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ، ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا . قال: أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرار ، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين: أني ضربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق ، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان ، لأجل الدنيا ، فاصبر أنت في طاعة الرحمن ، لأجل الدين ، قال ابن الجوزي: أبو الهيثم هذا يقال له: خالد الحداد ، وكان يضرب المثل بصبره ، وقال له المتوكل: ما بلغ من جلدك؟ قال: املأ لي جرابي عقارب ، ثم أدخل يدى فيه ، وإنه ليؤلمني ما يؤلمك ، وأجد لآخر سوط من الألم ما أجد لأول سوط ، ولو وضعت في فمي خرقة وأنا أضرب لاحترقت من حرارة ما يخرج من جوفي ، ولكنني وطنت نفسي على الصبر ، فقال له الفتح: ويحك مع هذا اللسان والعقل ما يدعوك إلى ما أنت عليه من الباطل؟ فقال: أحب الرياسة .

فقال المتوكل: نحن خليدية ، وقال الفتح: أنا خليدي . وقال رجل لخالد: يا خالد ما أنتم لحوم ودماء ، فيؤلمكم الضرب؟ فقال: بلى يؤلمنا ، ولكن معنا عزيمة صبر ليست لكم .

وقال داود بن علي: لما قدم بخالد اشتهيت أن أراه ، فمضيت إليه ، فوجدته جالسا غير متمكن لذهاب لحم إليتيه من الضرب ، وإذا حوله فتيان ، فجعلوا يقولون: ضرب فلان ، وفعل بفلان كذا ، فقال لهم: لا تتحدثوا عن غيركم ، افعلوا أنتم حتى يتحدث عنكم غيركم .

قال ابن الجوزي: فانظروا إلى الشيطان كيف يتلاعب بهؤلاء ، فيصبرون على شدة الألم ليحصل لهم الذكر ولو صبروا على يسير التقوى لحصل لهم الأجر ، والعجب أنهم يظنون لحالهم مرتبة وفضيلة مع ارتكاب العظائم .

وفي الحلية (٦/ ٣٧٦): أن سفيان الثوري كتب إلى عباد بن عباد: أما بعد ، فإنك في زمان كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يتعوذون أن يدركوه ولهم من العلم ما ليس لنا ولهم من القدم ما ليس لنا ، فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم ، وقلة صبر ، وقلة أعوان على الخير ، وفساد من الناس ،

وكدر من الدنيا؟ فعليك بالأمر الأول والتمسك به ، وعليك بالخمول ، فإن هذا زمن خمول ، وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس ، فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض ، فأما اليوم فقد ذهب ذاك ، والنجاة في تركهم فيما نرى ، وإياك والأمراء أن تدنو منهم وتخالطهم في شيء من الأشياء ، وإياك أن تخدع ، فيقال لك تشفع وتدرأ عن مظلوم ، أو ترد مظلمة ، فإن ذلك خديعة إبليس ، وإنما اتخذها فجار القراء سلما ، وكان يقال: اتقوا فتنة العابد الجاهل ، والعالم الفاجر ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، وما لقيت من المسألة والفتيا فاغتنم ذلك ، ولا تنافسهم فيه ، وإياك أن تكون كمن يحب أن يعمل بقوله أو ينشر قوله ، أو يسمع من قوله ، فإذا ترك ذاك منه عرف فيه ، وإياك وحب الرياسة ، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة ، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة ، فتفقد نفسك ، واعمل بنية ، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت ، والسلام .

وفي الحلية أيضا (٧/ ٣٩) عنه أيضا قال: ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة ، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب ، فإذا نوزع في الرياسة حامى عليها وعادى .

وفي تهذيب موعظة المؤمنين ص(٣٣١):

وفرقة زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ، ومن المسكن بالمساجد أو المدارس ، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب بالرياسة والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد ، فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين ، فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ، ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة ، وأن الراغب فيها لابد وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق . وقد يؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور ، إذ يتطاول بذلك على الناس وينظر إليهم بعين الاستحقار ، ويعجب بعمله ، ويتصف بجملة من خبائث القلوب ، وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من

أن يقـال بطـل زهـده ، فهو راغب في حمد الناس ، وهو من ألذ أبواب الدنيا ، ويرى نفسـه أنـه زاهـد في الدنـيا ، وهو مغرور ، ومع ذلك فربما لا يخلو عن توقير الأغنياء وتقديمهـم على الفقراء ، والميل إلى المريدين لـه والمثنين عليه ، والنفرة عن المائلين إلى غيره ، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان ، نعوذ بالله منه . ا هـ .

قلـت: وقـد جـرت سنة الله في خلقه بمعاقبة الجانى بنقيض قصده ، فمن حرص على الشهرة كان عاقبة أمره خسرا ، وحرم مما حرص عليه .

قـال الشيخ الفاضل بكر بن عبد الله أبو زيد في حلية طالب العلم ص(٦١): فيا طالـب العلم احذر أن تمرق من الصدق إلى المعاريض ، فالكذب ، وأسوأ مرامي هذا المـروق الكذب في العلم لداء منافسة الأقران وطيران السمعة في الآفاق ، ومن تطلع إلى سمعـة فـوق منزلـته ، فليعـلم أن في المرصـاد رجالا يحملون بصائر نافذة وأقلاما ناقدة ، فيزنون السمعة بالأثر ، فتتم تعريتك عن ثلاث معان:

١ - فقد الثقة من القلوب .

٢ - ذهاب علمك وانحسار القبول .

٣ - أن لا تصدق ولو صدقت .

وبالجملـة فمن يحترف زخرف القول فهو أخو الساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى . ا هـ .

* * * * *

طلب الدنيا بتأليف الكتب الإسلامية

إن التأليف وسيلة لنشر العلم بين الناس ، وهو وسيلة سريعة الانتشار ، عظيمة التأثير في الناس ، فمن طرق هذا الباب يحتسب فيه الأجر من الله عز وجل كان له عظيم الأجر مع حسن الذكر ، ولكن بعض طلاب العلم جعلوه وسيلة لجمع المال والثراء المادي ، فكان هذا شغلهم الشاغل ، فتجد أحدهم لا يكتب إلا فيما يدر عليه مالا بغض النظر عما يكتب ، والكتابة وسيلة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد تدعو الحاجة للكتابة في أمر يجب فيه الأمر بالمعروف ، ولكن لا تطيب نفس المؤلف به ماديا وكذلك صاحب دار النشر ، فيترك ولا يكتب فيه لا لشيء إلا لأجل الدنيا ، فيفرط الجميع في حق الله عز وجل ، فأصبح كثير من هؤلاء مجموعة من الانتهازية يتصارعون على الدنيا كما يتصارع عليها أهلها من أصحاب التجارات والزراعات والصناعات ، لذلك تجدهم يخفي بعضهم على بعض أعمالهم العلمية خشية أن يأخذ منه الموضوع ، فيكتب فيه فيسبقه في إخراجه ، ويتضح ذلك كثيرا فيمن يعملون في إخراج التراث من المخطوطات ، يتسابق في إخراجه حتى يدرك السوق والتسويق ، ولو على حساب إتقان الكتاب وخدمته ، ومن تابع ذلك رأى صورا مخزية من التعدي على تراث الأمة ، وذلك للطمع في المال ، فإما أن يكون المحقق ليس متأهلا لذلك ، ويتصدى للتحقيق لأجل المال ، ولا يبالي هل أدى حق الله في تراث الأمة أم لا؟ وإما أن يكون ذلك لعجلته حتى يطمئن على نفاد كتابه .

قال الدكتور أكرم ضياء العمري: لقد دخل إلى ميدان النشر تجار الكتب والطفيليون ، فتم إخراج الكثير من المؤلفات بصورة سقيمة مليئة بالتحريف والتصحيف ، فضلا عن الأخطاء الطباعية ، وامتلأت جيوب هؤلاء بالمال على حساب التراث ومحبيه ، حتى إذا اهتم العالم المتخصص بنشر كتاب ما بصورة علمية ، وأمضى شطرا من حياته في خدمته ، وجد أن السوق تعاني من سياسة

الإغراق التي يستخدمها التجار بحيث لا يجد لكتابة مشتريا بعد أن اقتنى الناس نسخهم قبل صدور طبعته .

ولا يكتفي التجار بذلك ، بل هم يلاحقون كتابه حتى إذا رأوا نشره مجديا اقتصاديا حذفوا اسم المحقق ، وطبعوه ، وأحيانا صوروه ، وباعوه بثمن أقل ، لأن كلفة التصوير ، وإمكانات الناشرين أقوى من المؤلف مما يمكنهم من خفض الكلفة كثيرا[1] .

وبسبب الصراع على النشر وغيره نتجت فوضى في النشر وأعمال مكررة فتضيع الجهود بلا فائدة .

يقول الدكتور أكرم ضياء العمري في التراث والمعاصرة: إننا نعاني من فوضى في النشر لا نجد لها مثيلا لدى الأمم الأخرى . . . . . . ومنذ عدة عقود ، وعندما بدأت حركة إحياء التراث ، وساهم فيها عدد محدود من العلماء في بداية الأمر ظهرت مشكلة تكرار الأعمال ، لعدم وجود مركز يوحد المعلومات عن الكتب المطبوعة والمخطوطة يمكن العالم من تسجيل حقه في العمل بكتاب معين ، ويعلن ذلك ويلتزم به أدبيا ، فلا يزاحمه أحد ، ولا يقلقه طفيلي ، ومقابل ذلك يلتزم بإخراجه ، ولا يسمح لعالم واحد باحتكار مجموعة كتب ، لا ينشر إلا مقدماتها ، ثم ينتقل إلى رحمة الله .

لقد تضخمت هذه المشكلة بتوسع الدراسات العليا ، وإقبال طلبتها على تسجيل رسائلهم العلمية في تحقيق التراث .

وهنا تطالعنا صورة أليمة عن ضياع الجهود الكثيرة في الأعمال المكررة ، وأحيانا يعمل ثلاثة أو أربعة من الباحثين في نشر كتاب واحد ، وفي الغالب يكون مستواهم متقاربا ، ونسخهم متشابهة ، في الوقت الذي نحن بحاجة فيه إلى كل جهد لإنجاز مهمة تحقيق التراث في مدة زمنية مناسبة .

---

(١) التراث والمعاصرة ص(٣٨) .

ولـو نسقت الطاقات فربما وصلنا إلى مكتبة عربية تراثية متكاملة خلال ربع قرن مـن الـزمان ، إن بعضـهم لا يـرى بأسا في صدور عدة نشرات من الكتاب الواحد ، فالنسـخ تكـثر وتغطـي حاجـة العـالم الإسلامي ، ولكنه ينسى أمرا أهم ، وهو تبديد الجهود ، وضياع الطاقات لفئة من المتخصصين نحن بأشد الحاجة إليها .

والمشـكلة ليست من المعضلات ، ولا تحتاج سوى الاتفاق بين الجامعات ومراكز التحقـيق المخـتلفة عـلى ترشـيح جهـة معينة مثل: معهد المخطوطات بجامعة الدول العربـية ، أو وحـدة المعلومات التابعة للندوة العالمية للأنشطة العلمية الإسلامية ، أو غيرهمـا تقـوم بجمـع المعلومـات في جهـاز "كمبـيوتر" ، وتنظـيمها وجعـلها في متناول الجامعات والمراكز العلمية الأخرى ، فلا تسجل رسالة إلا بعد الرد الإيجابي من قبل تلك الجهة .

فهـل تعجز مؤسساتنا عن ذلك في عصر الاتصالات السريعة؟ وكثير منها تمتلك "الـتلكس" وسـائر وسـائل الاتصـال ، فـلماذا نهـدر طاقاتـنا ، ونضيع جهودنا بسبب الإهمـال وعـدم المـبالاة وحدهمـا؟! إن إلقـاء نظرة سريعة على نشرة "أخبار التراث العـربى" الـتي يصدرها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، أو النشرة الإخبارية الـتي تصـدرها وحـدة المعلومـات الـتابعة للندوة العلمية للأنشطة الإسلامية توضح مـدى تفـاقم المشـكلة وآثارهـا السلبية على حياتنا الفكرية ، إذ قلما يخلو عدد منهما مـن ذكـر الازدواجية في الأعمال الفكرية ، فمحقق يعلن عن اشتغاله بتحقيق نص ، ويتعقـبه ثـان بأنـه يعمـل في تحقيق النص نفسه ، وقد يقوم ثالث بإخراج النص دون الاثـنين ، ودون إعـلان عمـلا بحديـث: **«استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»** . إن دراسـة تـاريخ الحـركة الفكـرية في الإسـلام تفتح بصيرة الإنسان المعاصر على أبعاد الالتزام الأدبي ، وانكشاف السرقات الأدبية ولو بعد حين .

وتقالـيد العلماء في البحث العلمي والتكامل المعرفي ، والبعد عن الأنانية وحب الشـهرة عـلى حساب الآخرين ، وقبل ذلك كله استحضار النية في الأعمال العلمية

كان لها أعظم الأثر في الازدهار الثقافي في تاريخنا . اهـ .[1] وفي الحلية (٧/ ٥٤): عن الثوري قال: إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة .

وفي الحلية أيضا (٨/ ٩٨): قال الفضيل بن عياض: لأن يطلب الرجل الدنيا بأقبح ما تطلب به أحسن من أن يطلب بأحسن ما تطلب به الآخرة .

وليعلم طالب العلم الذي يمتهن التصنيف والذي يصير التأليف والتصنيف عنده نوعا من أنواع التجارة[2] أنه سيأتي عليه يوم يندم على كل كتاب لم يتقنه فغالب هذه الكتب لا يطبع إلا مرة واحدة ، ولا يكتب لها القبول ، وأما الكتاب الذي يتقنه صاحبه ، ويخلص نيته فيه لله عز وجل فإن الله عز وجل يضع له القبول ، وينتفع به صاحبه في الدنيا والآخرة ، فكم من واحد من أهل العلم رفعه الله عز وجل وأعلى ذكره بسبب كتاب واحد ، وفقه الله عز وجل فيه وفي تصنيفه ، واعتبر برياض الصالحين للنووي وتفسير ابن كثير وكتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب في غيرها ، والله الموفق .

* * * * *

---

(١) التراث والمعاصرة ص(٨٢ - ٨٤) .

(٢) وقد يؤول الحال ببعضهم أنه يكرر ما يكتبه ، بعد تصرف قليل ، وتقديم وتأخير في سلسلة من الإسفاف ، والله المستعان .

التصنيف لأجل الرئاسة والشهرة

قد سبق أن التصنيف من أعظم وسائل نشر العلم ونصر سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فينبغي أن يبتغى به وجه الله، ومع ذلك فإن كثيرا ممن يتعرضون للتصنيف والكتابة في زماننا يكون غرضهم الأساسى هو الشهرة وكثرة الأتباع والسيادة.

قال ابن الجوزي رحمه الله في "تلبيس إبليس" ص(١٣٠): وقد لبس إبليس على الكاملين في العلوم، فيسهرون ليلهم، ويدأبون نهارهم، في تصانيف العلوم، ويريهم إبليس أن المقصود نشر الدين، ويكون مقصودهم الباطن انتشار الذكر، وعلو الصيت والرياسة وطلب الرحلة من الآفاق إلى المصنف.

وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انتفع بمصنفاته الناس من غير تردد إليه أو قرئت على نظيره في العلم فرح بذلك إن كان مراده نشر العلم[١]، وقد قال بعض السلف: ما من علم علمته إلا أحببت أن يستفيده الناس من غير أن ينسب إلي، ومنهم من يفرح بكثرة الأتباع، ويلبس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم، وإنما مراده كثرة الأصحاب واستطارة الذكر، ومن ذلك العجب بكلماتهم وعلمهم وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انقطع بعضه إلى غيره ممن هو أعلم منه ثقل ذلك عليه، وما هذه صفة المخلص في التعليم، لأن مثل المخلص مثل الأطباء الذين يداوون المرضى لله سبحانه وتعالى، فإذا شفي بعض المرضى على يد طبيب منهم فرح الآخر[٢].

---

(١) ما أحسن كلام الحافظ ابن الجوزي رحمه الله، ونقول: وكذلك إذا كان يريد وجه الله بالتصنيف، ويريد نشر العلم فإنه لو فرض أنه أراد أن يكتب في مسألة من المسائل، فرأى غيره قد فعل ذلك وأحسن فرح بذلك، وأثنى على عمله، وساعد في نشره، ولكن أين هذا ممن يتكاتمون أعمالهم على أقرب الناس إليهم، بل هناك من إذا رأى أحدا صنف في باب من أبواب العلم، وكان يمكنه أن يساعده في نشره ولا يفعل، لأنه يكره أن ينسب عمل جيد لغيره فلا يساعده في نشره إلا أن ينسب إليه ذلك بمقدمة يظهر فيها أن المصنف من طلبته، وخلاف ذلك فلا يساعد أحدا مهما بلغ من العلم والإتقان، وهل هذا إلا حظ النفس، وتقديمه على مصلحة الدين، اللهم أصلح نفوسنا.

(٢) أين هذا ممن يلمز الكبار والأقران أمام الناس رغبة منه ألا يبقى لهم أحد يثقون به غيره، أسأل الله عز وجل أن يعصمنا من الزلل، وأن يصلح أحوال إخواننا المسلمين أجمعين.

وقد ذكرنا آنفا حديث ابن أبي ليلى ، ونعيده بإسناد آخر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الأنصار ، ما منهم رجل يسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه[1] .

ونحن نرى في أيامنا تسابق الشباب من طلاب العلم على التصنيف ، بل وصراع بعضهم مع بعض خاصة في مجالات المخطوطات أشد من صراع تجار الدنيا فيما بينهم في أمور يندى لها جبين من بقي في قلبه شيء من الحياء .

فهل يمكن أن ترى طالب علم يرى مخطوطة من التراث فيتركها لصاحبه لكونه يراه أكفأ منه وأولى منه بها؟

أنا أشك أن نجد من هو على هذا الحال في أيامنا هذه!! وإلى الله المشتكى .

ولنذكر صورة مشرفة لعلماء في عصرنا لبعض من نحسبهم من الصادقين ، ففي مقدمة كتاب "موضح أوهام الجمع والتفريق" قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي: كان الأخ العلامة الشيخ محمد عبد الرازق حمزة عافاه الله قد اطلع على نسخة هذا الكتاب (الموضح) في مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب برقم (٣٣٩) ، وذكره لى عند رجوعه إلى مكة المكرمة ، وذكر علاقته بتاريخ البخاري ، وإن من تمام ما قمت به ، وقامت به جمعية دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن من خدمة التاريخ تلك الخدمة البالغة أن تقوم بخدمة هذا الكتاب (الموضح) ، ولم أهتم حينئذ بالأمر لأني لم أقدره قدره ، ثم سافر فضيلته مرة أخرى إلى الشام ، فأخذ لنفسه صورا من الكتاب ، وعند رجوعه إلى مكة المكرمة أراني ، فلما تصفحت الكتاب علمت أني كنت على خطأ في عدم اهتمامي به أولا ، فبادرت إلى نسخه وتحقيقه ، والتعليق عليه . انتهى المراد منه .

فهل كان الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة رحمه الله غير قادر على تحقيق الكتاب

---

(١) تلبيس إبليس ص(١٣٠ - ١٣١) .

وإخراجه باسمه؟

إن الرجل علامة كما وصفه المعلمي ، ومن أهل الحديث ، ولكنه الإخلاص للعلم ووصل رحمه بإيصاله إلى أهله .

إن هدف الشيخ هو خدمة هذا الكتاب النافع ، ولذلك فهو يختار أكفأ من يقوم بهذه الخدمة وإن كان غيره .

فهل من رجعة إلى تلك الأخلاق؟!! .

إن الأمر ليس بالهين ، فإنه يحتاج إلى جهاد نفس كبير وإيثار الآخرة على الدنيا ، إن الأمر يحتاج إلى تغيير شامل وتضحية لتصفية النفوس ، أسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا .

ومما يلتحق بهذا الباب ما يأتي:

* * * * *

استخدام الطالب التصنيف وسيلة لإبراز شخصه وتعظيم نفسه

من الآفات التي تصيب طالب العلم إذا أقدم على التصنيف الحرص على إبراز نفسه وأن ينسب لنفسه قولا يحشره بين أقوال الكبار ، وربما فخم نفسه بعبارات لا يستعملها إلا الكبار ، فيتعمد أن يكثر من قوله: قلت ، والذي يترجح لدينا ، وعندنا ،ونحو ذلك من العبارات الكبيرة تفخيما لأمره وتعظيما لشأنه .

قال الشيخ الفاضل بكر بن عبد الله أبوزيد في كتابه "التعالم" ص(٦٧): ومن أسوأ ظواهر التعالم: إثبات الشخصية في الرسائل بما تلقاه عدد من الطلاب في إعداد رسائلهم عن أساتيذهم في الإشراف والمناقشة من أن وسيلة القبول وعنوان النجاح وقائد الامتياز أن يخوض الطالب غمار الترجيح والاختيار والقبول والرد! ولهذا فترى الرسائل محشورة سطورها بهذه العبارات السمجة: "ترجيحنا - اختيارنا - رأينا - ونحن نرفض هذا القول ونحن نرى - ونحن لا نؤيد هذا الرأي - وهذا الحديث صحيح وذاك ضعيف . . . . . . "[1] .

قال ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى:

يقولون هذا عندنا غير جائز ::: ومن أنتمو حتى يكون لكم عند

وهكذا في بلاء متناسل انتهى المراد منه .

وأمثال هؤلاء الذين يريدون إظهار شخوصهم يحرص الواحد منهم حين يقدم على التصنيف على أن يكون اسمه ظاهرا على غلاف الكتاب ، ويسعى لإبرازه بكل سبيل ،فأين هذا من العلماء الذين قاموا على التصنيف والتحقيق حتى فترة قريبة؟ .

قال الأخ الدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني في كتابه تحقيق نصوص التراث

---

(١) وأقبح ما يكون من ذلك إذا ذكر الطالب أقوال الأئمة الكبار ثم يعقب بقوله قلت: والراجح عندي كذا وكذا ، والذي اختاره كذا وكذا إلى غير ذلك من العبارات التي يتكلم بها كبار الأئمة ، وربما تمادى في غروره فتطاول على كبار الأئمة ، وهو عري عن العلم والأدب ، نسأل الله السلامة والعافية .

في القديم والحديث ص(٦٠): وفي أوائل القرن العشرين ازدهرت حركة إحياء التراث الإسلامي في الهند ،وذلك بما أخرجته تباعا دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن من نفائس كتب التراث في علم التفسير والحديث والرجال والتاريخ واللغة والأدب مثل لسان الميزان لابن حجر عام ١٣٠٠هـ ، والكنى والأسماء للدولابي عام ١٣٢٢هـ ،وتهذيب التهذيب لابن حجر عام ١٣٢٧هـ ، وتفسير الكشاف ،والسنن الكبرى للبيهقي عام ١٣٤٤هـ ، والتاريخ الكبير للبخارى ، والأنساب لابن السمعاني ،والكفاية للخطيب البغدادي عام ١٣٥٧هـ ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم عام ١٣٦١هـ ، إلى غير ذلك من نفائس الكتب ، وهي كثيرة .

وكان يشرف على إخراج هذه الكنوز علماء أهل كفاية ودراية ، مهروا في فن التحقيق ، ودربوا فيه ،وشهد لهم الكافة في عملهم بالدقة والإتقان ، وكان شعارهم في عملهم الاحتساب والإخلاص ،حتى إن أحدهم ليحقق الكتاب ذا المجلدات الضخمة ، ولا تجد له اسما على غلاف .

* * * * *

العجب واستخدام العلم للتعالي على الناس

قال ابن الجوزي رحمه الله في تلبيس إبليس ص(١٢٩): وقد لبس إبليس على أقوام من المحكمين في العلم والعمل من جهة أخرى، فحسن لهم الكبر بالعلم، والحسد للنظير، والرياء لطلب الريلسة، فتارة يريهم أن هذا كالحق الواجب لهم، وتارة يقوى حب ذلك عندهم فلا يتركونه مع علمهم بأنه خطأ، وعلاج هذا لمن وفق إدمان النظر في إثم الكبر والحسد والرياء وإعلام النفس أن العلم لا يدفع شر هذه المكتسبات، بل يضاعف عذابها لتضاعف الحجة به، ومن نظر في سير السلف من العلماء العاملين استقر نفسه فلم يتكبر، ومن عرف الله لم يراء، ومن لاحظ جريان أقداره على مقتضى إرادته لم يحسد، وقد يدخل إبليس على هؤلاء بشبهة ظريفة، فيقول:طلبكم للرفعة ليس بتكبر، لأنكم نواب الشرع، فإنكم تطلبون إعزاز الدين، ودحض أهل البدع، وإطلاقكم اللسان في الحساد غضب للشرع، إذ الحساد قد ذموا من قام به[1]، وما تظنونه رياء فليس برياء، لأن من تخاشع منكم وتباكى اقتدى به الناس، كما يقتدون بالطبيب إذا احتمى أكثر من اقتدائهم بقوله إذا وصف، وكشف هذا التلبيس:أنه لو تكبر متكبر على غيرهم من جنسهم، وصعد في المجلس فوقه أو قال حاسد عنه شيئا لم يغضب هذا العالم لذلك كغضبه لنفسه، وإن المذكور من نواب الشرع فعلم أنه إنما لم يغضب لنفسه، بل للعلم وأما الرياء فلا عذر فيه لأحد، ولا يصلح أن يجعل طريقا لدعاية الناس، وقد كان أيوب السختياني إذا حدث بحديث فرق، ومسح وجهه، وقال: ما أشد الزكام، وبعد هذا فالأعمال بالنيات، والناقد بصير، وكم من ساكت عن غيبة المسلمين إذا اغتيبوا عنده فرح قلبه، وهو آثم بذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: الفرح: فإنه حصل بوجود هذه المعصية من المغتاب، والثاني: بسروره بثلب المسلمين، والثالث: أنه لا ينكر. انتهى، ولقد لمغتنا صور مشرفة من تواضع العلماء في زماننا، فمنها ما ذكره محقق

(١) ما أشف نظر هذا الإمام رحمه الله، فإن هناك من يعتبر من يتكلم فيه بشيء متكلما في الشرع، وكل من أساء إليه فقد أساء إلى الشرع، ومن جفا شخصا أو أشخاصا فقد جفا الشرع، فأين هذا من الإنصاف؟ نسأل الله أن يرزقناه.

كتاب عمارة القبور للمعلمي عنه حيث قال في مقدمته للكتاب ص(٨): ولك أن تتصور انغمار ذكر المعلمي في الحياة أن الشيخ أحمد شاكر رغب في سنة من السنوات في رؤية الشيخ المعلمي - رحمهما الله تعالى - فدخل مكتبة الحرم، واتجه صوب مدير المكتبة الشيخ سليمان الصنيع رحمه الله - وأثناء محادثته مع الشيخ سليمان الصنيع جاء المعلمي - رحمه الله - بالماء والشاي، ووضعهما أمام الشيخ أحمد شاكر والصنيع، وانصرف المعلمي للقراءة، ثم قال الشيخ أحمد شاكر (باللهجة المصرية): عاوز أشوف الشيخ المعلمي، فقال له الصنيع: الذي أحضر لك الشاي والماء هو المعلمي، وما هي إلا دقائق حتى أخذ الشيخ أحمد شاكر في البكاء.

نسأل الله عز وجل أن يزكي نفوسنا ونفوس إخواننا طلاب العلم، وأما السلف فتواضعهم وهضمهم أنفسهم أكثر من أن يحصر، فمن الأمثلة ما في الحلية (٣/ ١٥): عن مؤمل بن إسماعيل قال: جاء رجل من أهل الشام إلى سوق الخزازين فقال: مطرف بأربعمائة، فقال يونس بن عبيد: عندنا بمائتين، فنادى المنادي بالصلاة، فانطلق يونس إلى بني قشير ليصلي بهم، فجاء وقد باع ابن أخته المطرف من الشامي بأربعمائة، فقال يونس: ما هذه الدراهم؟ قال: ذاك المطرف بعناه من ذا الرجل، قال يونس: يا عبد الله هذا المطرف الذي عرضت عليك بمائتي درهم فإن شئت خذه وخذ مائتين وإن شئت فدعه، قال: له من أنت؟ قال: رجل من المسلمين، قال: قال: بل أسألك بالله من أنت؟ وما اسمك؟ قال: يونس بن عبيد، قال: فوالله إنا لنكون في نحر العدو، فإذا اشتد الأمر علينا قلنا: اللهم رب يونس ابن عبيد فرج عنا أو شبيه هذا، فقال يونس: سبحان الله، سبحان الله.

وقال الذهبي في معجم شيوخه (٢/ ٣٢٧) عن شيخه علي بن مظفر: لم يكن عليه ضوء في دينه، حملني الشره على السماع من مثله - والله يسامحه - كان يخل بالصلوات، ويرمى بالعظام، وفي الحلية أيضا (٤/ ٣١١): عن ليث (لعله ابن أبي سليم) قال: كنت أسأل الشعبي، فيعرض عني، ويجبهني بالمسألة، فقلت: يا معشر العلماء، يا معشر الفقهاء تروون عنا أحاديثكم، وتجبهوننا بالمسألة، فقال الشعبي: يا

معشر العلماء ، يامعشر الفقهاء ، لسنا بفقهاء ولا علماء ، ولكنا قوم قد سمعنا حديثا ، فنحن نحدثكم بما سمعنا ، إنما الفقيه من ورع عن محارم الله ، والعالم من خاف الله . وروى عنه ذلك أيضا مالك بن مغول ، وفي السير(٥/ ٣٦٢): قال مالك ابن دينار: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ، ولم أكره ذمهم ، لأن حامدهم مفرط ، وذَامُّهم مفرط إذا تعلم العالم العلم للعمل كسره ، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فخرا ، وفيه أيضا(٥/ ٣٦٢): الأصمعي عن أبيه قال: مر المهلب على مالك بن دينار متبختراً ، فقال: أما علمت أنها مشية يكرهها الله إلا بين الصفين؟! فقال المهلب: أما تعرفني فقال: بلى ، أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة ، فانكسر ، وقال: الآن عرفتني حق المعرفة ، وفي الحلية(٢/ ٣٥٢): عن الحارث بن نبهان عن محمد بن واسع قال: واصحباه ، ذهب أصحابي ، قلت: رحمك الله ، أبا عبد الله أليس قد نشأ شباب يصومون النهار ، ويقومون الليل ، ويجاهدون في سبيل الله؟ قال: بلى ، ولكن ، أخ ، وتفل ، أفسدهم العجب ، وفي الحلية (٩/ ١٨١): عن يحيى بن معين قال: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير: وفي تهذيب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ص(٣٠٩): ما أسرع الكبر إلى بعض العلماء ، فلا يلبث أن يستشعر في نفسه كمال العلم ، فيستعظم نفسه ، ويستحقر الناس ، ويستجهلهم ، ويستخدم من خالطه منهم ، وقد يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، وسبب كبره بالعلم أمران: أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يسمى علما ، وليس علما في الحقيقة ، فان العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه ، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر ، قال تعالى ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء** ﴾ ، ثانيهما: أن يخوض في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سيئ الأخلاق ، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ، فبقي خبيث الجوهر ، فإذا خاض في العلم صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره ، وقد ضرب وهب لهذا مثلا ، فقال:

العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار بعروقها ، فتحوله على قدر طعومها ، فيزداد المر مرارة ، والحلو حلاوة ، كذلك العلم يحفظه الرجال ، فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبرا ، والمتواضع تواضعا ، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل ، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً ، وإذا كان الرجل خائفا مع علمه فازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه ، فيزداد خوفا اهـ .ولا تكاد تقف أو يستوقفك كلام لمن ابتلي بالغرور فيه ثناء على أحد من العلم ولا على أقوالهم ، قتله الغرور ، وقد دخل في أهل العلم وحده وسيخرج منه وحده ، فيا طالب العلم فتش في نفسك ، فربما يكون قد دخلك شيء من دغل هذه الطائفة الممقوتة ، وفر منها فرارك من الأسد ، فقد نصحتك ، وعلى الله الاتكال ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، قال الذهبي في السير (٧/ ١٧): قال معمر: لقد طلبنا هذا الشأن وما لنا فيه نية ، ثم رزقنا الله النية من بعد ، وقال معمر أيضا: كان يقال:إن الرجل يطلب العلم لغير الله فيأبى عليه العلم حتى يكون لله ، قال الذهبي:نعم ، يطلبه أولاً والحامل له حب العلم وحب إزالة الجهل عنه وحب الوظائف ونحو ذلك ، ولم يكن علم وجوب الإخلاص فيه ولا صدق النية ، فإذا علم حاسب نفسه ، وخاف من وبال قصده ، فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها ، وقد يتوب من نيته الفاسدة ويندم ، وعلامة ذلك أنه يقصر من الدعاوى وحب المناظرة ، ومن قصد التكثر بعلمه ، ويزري على نفسه ، فإن تكثر بعلمه ، أو قال: أنا أعلم من فلان ، فبعدا له ، وفي السير أيضا (١٠/ ٣١٧)، وقد أورد أثرا فيه راويان ضعيفان ، فقال:فلو كان في ورع لما رويت لمن هذا نعته ، وفي السير أيضا (٩/ ٣٤٠): ذكر معروف (يعني الكرخي) عند الإمام أحمد ، فقيل: قصير العلم ، فقال:أمسك ، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف ، وفي الحلية (٧/ ٢٩٠): عن سفيان بن عيينة قال:كنت أخرج إلى المسجد ، فأتصفح الخلق فإذا رأيت مشيخة وكهولا جلست إليهم ، وأنا اليوم قد اكتنفني هؤلاء الصبيان ، ثم أنشد:

خلت الديار فسدت غير مسود ::: ومن الشقاء تفردي بالسؤدد

* * * *

الترف والحرص على زخرف الحياة الدنيا

لقد ذم الله عز وجل أهل الترف، فقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِّن نَّذيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارهم مُّقْتَدُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفيهَا فَفَسَقُواْ فيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْميرًا ﴾إلى غير ذلك من الآيات التي تتضمن ذم الترف وأهله[(١)]، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنه في الحديث الطويل في اعتزال النبي ﷺ نساءه، قال عمر يصف بيت رسول الله ﷺ: ثم رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر غير أهبة ثلاث، فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسع عليهم، وأعطوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله، وكان متكئا، فقال: **أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**، فقلت: يا رسول الله، استغفرلي[(٢)]، وفي صحيح البخاري عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم عن أبيه سعد عن أبيه إبراهيم يعني ابن عبد الرحمن بن عوف قال: أتي عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه يوما بطعامه، فقال: قتل مصعب بن عمير- وكان خيرا مني - فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، وقتل حمزة - أو رجل آخر - خير مني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، لقد خشيت أن يكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي[(٣)] هكذا كانت حياة النبي ﷺ وحياة أصحابه رضي الله عنهم، وكذلك كانت حياة العلماء العاملين، وأحوالهم في ذلك معلومة مشهورة يطول ذكرها، وأذكر هنا واقعة واحدة لأحد علمائنا وأئمتنا، وهو إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله، وذلك فيما ذكر ابن أبي حاتم في مقدمة الجرح والتعديل ص (٢٩٩)، قال: أخبرنا صالح بن أحمد بن حنبل قال: دخلت يوماً على أبي رحمه الله أيام الواثق،

---

(١) لا يعني هذا القول تحريم شيء أباحه الله عز وجل، فالله سبحانه يقول: ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾، ولكن المذموم هو التوسع في النفقات والإسراف، كما قال الله عز وجل قبل هذه الآية: ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾

(٢) رواه البخاري(٢٤٦٨) ومسلم(١٤٧٩).

(٣) رواه البخاري(١٢٧٤)عن أحمد بن محمد المكي عن إبراهيم بن سعد به.

والله يعلم على أي حالة نحن ، وقد خرج لصلاة العصر ، وكان لـه لِبْد[1] ، وقد أتى عليه سنين كثيرة حتى قد بلي ، وإذا تحته كتاب كاغد ، وإذا فيه: بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق ، وما عليك من الدين ، وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم على يد فلان لتقضي بها دينك ، وتوسع على عيالك ، وما هي من صدقة ولا زكاة ، وإنما هو شيء ورثته من أبي ، فقرأت الكتاب ، ووضعته ، فلما دخلت ، قلت: يا أبة ما هذا الكتاب؟ فاحمر وجهه ، وقال: رفعته منك ، ثم قال: تذهب بجوابه ، فكتب إلى الرجل: وصل كتابك إلى ، ونحن في عافية ، فأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا ، وأما عيالنا فهم في نعمة ، والحمد لله ، فذهبت بالكتاب إلي الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل ، فلما كان بعد حين ورد عليه كتاب الرجل بمثل ذلك ، فرد عليه الجواب بمثل ما ورد[2]، فلما مضت سنة أقل أو أكثر ذكرناها ، فقال: لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت . اهـ . ، وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: رأيت عمر بن الخطاب وهو يومئذ أمير المؤمنين ، وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبد بعضها فوق بعض ، وعنه أيضا قال:رأيت على عمر إزارا فيه أربع عشرة رقعة ، إن بعضها لأدم ، وما عليه قميص ولا رداء ، معتم ، معه الدرة ، يطوف في سوق المدينة ، وعن أبي عثمان النهدي قال:رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت عليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة إحداهن بأديم أحمر ، وعن عبيد بن عمير قال: رأيت عمر يرمي الجمار عليه إزار مرقع على مقعدته[3] وقال أبو داود:من اقتصر على لباس دون ، ومطعم دون أراح جسده[4]، وعن عيسى بن سنان قال: سمعت وهب بن منبه يقول لعطاء الخراساني: كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، وكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم ، وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم في علمهم ، قال: فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم ، وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم ، لما رأوا

(١) اللَبْدُ: بساط يجلس عليه .
(٢) قال الشيخ المعلمي في تعليقه: كذا في الأصول ، والظاهر بمثل ما ردّ .
(٣) روى هذه الآثار ابن سعد(٣/ ٣٢٧- ٣٣٠) وغيره .
(٤) المدخل للبيهقي(٥٥١) .

من سوء موضعه عندهم[1]، وفي الحلية(٣/ ١٠): عن أيوب قال: إن قوما يتنعمون، ويأبى الله إلا أن يضعهم، وإن أقواما يتواضعون، ويأبى الله إلا أن يرفعهم، وفي الحلية(٧/ ٢١٩): عن أبي أسامة قال: قال لي مسعر: يا حماد إن صبرت على أكل البقل والخبز لم يستعبدك كثير من هؤلاء، وفي الحلية(٧/ ٢٧٢): عن حرملة بن يحيى قال:أخذ سفيان بن عيينة بيدي، فأقامني في ناحية، وأخرج من كمه رغيف شعير، وقال لي:دع يا حرملة ما يقول الناس، هذا طعامي منذ ستين سنة، وفي السير (٦/ ١٢١): قال جعفر بن سليمان: قال محمد بن واسع: إني لأغبط رجلا معه دينه، وما معه من الدنيا شيء، وهو راض، وفيه أيضا(١٠/ ٨٩): قال الشافعي رحمه الله: لا يبلغ في هذا الشأن رجل حتى يضر به الفقر، ويؤثره على كل شيء، وفيه أيضا (١٨/ ٤٥٨ - ٤٥٩): قال أبو العباس الجرجاني القاضي: كان أبو إسحاق لا يملك شيئا، بلغ به الفقر حتى كان لا يجد قوتا ولا ملبسا، كنا نأتيه وهو ساكن في القطيعة، وكنت أمشي معه، فتعلق به باقلاني، وقال: يا شيخ كسرتني وأفقرتني، فقلنا: وكم لك عنده ؟، قال:حبتان من ذهب، أو حبتان ونصف، وفي السير أيضا (٧/ ٦٢): عن عتبة الغلام:أنه نازعته نفسه لحما، فماطلها سبع سنين، وقال أيضا: لا يعجبني رجل ألا يحترف، وفي السير أيضا (٧/ ٢٠٧): قال: شعبة: إذا كان عندي دقيق وقصب ما أبالي ما فاتني من الدنيا، وفي ص(٢٢٠)قال: من طلب الحديث أفلس، بعت طست أمي بسبعة، وفيها أيضا (١٧/ ٦٥٥): قال محمد بن طاهر: سألت الحافظ أبا إسحاق الحبال عن أبي نصر السجزي وأبي عبد الله الصوري أيهما أحفظ؟ فقال: كان السجزي أحفظ من خمسين مثل الصوري، ثم قال إسحاق: كنت يوما عند أبي نصر السجزي، فدق الباب، فقمت، ففتحت، فدخلت امرأة، وأخرجت كيسا فيه ألف دينار، فوضعته بين يدي الشيخ، وقالت: أنفقها كما ترى، قال: ما المقصود ؟، قالت:تتزوجني، ولا حاجة لي في الزوج لكن لأخدمك، فأمرها بأخذ الكيس، وأن تنصرف، فلما انصرفت، قال:خرجت من سجستان بنية طلب العلم، ومتى

(١) المصدر السابق(٥٦٠).

تزوجت سقط عني هذا الاسم ، وما أوثر على طلب ثواب العلم شيئا ، فقال الذهبي: كأنه يريد متى تزوج للذهب نقص أجره ، وإلا فلو تزوج في الجملة لكان أفضل ، ولما قدح ذلك في طلبه العلم ، بل يكون قد عمل بمقتضى العلم ، لكنه كان غريبا ، فخاف العيلة ، وأن يتفرق عليه حاله عن الطلب ، وفي السير أيضا (١٥/ ٥٣٤):قال أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبد الله العنبري: العالم المختار أن يرجع إلى حسن الحال ، فيأكل الطيب و الحلال ، ولا يكسب بعلمه المال ، ويكون علمه له جمال ، وماله من الله منٌ عليه وإفضال ، وفي السير (١٧/ ٤٨٢): قال الذهبي: ما أقبح بالعالم الداعي إلى الله الحرص وجمع المال ، وفي الحلية (٧/ ٤٦): عن الثوري قال: لا خير في القارئ يعظم أهل الدنيا ، هكذا كان سلفنا الصالح رحمهم الله ، وأما في زماننا فنجد كثيرا ممن ينتسبون إلى علم يعيشون في ترف وبذخ في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمركب ووسائل اتصالات وغير ذلك من زخرف الحياة الدنيا ، وكثير من هؤلاء حصل لهم ذلك بعد أن تلبسوا بشيء من العلم ، وكانوا قبل ذلك على حال ضعيفة من العيش فكان ذلك سببا لصرف قلوب المبتدئين في الطلب إلى هذه الأمور ، وتعلقت قلوبهم بهذا النوع من الحياة ، وإن كانوا في الظاهر يطلبون العلم ، لكن العلم في حقيقة الأمر أصبح عند هؤلاء وسيلة لنيل هذه الأمور ، وازداد الأمر خفاء على هؤلاء المبتدئين إذا رأوا هذا الصنف من الناس ، يستعملون بعض المال في أمور الخير الظاهرة ، وهم لا يصلون إلى شيء من ذلك ، فاختلطت عليهم أمور الدنيا بالآخرة ، فأصبحوا لا يميزون ، ومثل هؤلاء لم يحصل لهم من الزاد مثل ما حصل لمن قبلهم ، فصار سيرهم في هذا الطريق وتعلقهم به في حقيقة الأمر لأجل الدنيا ، أو لأجل هذا وذاك ، وليس خالصا لوجه الله .

وبالجملة فهذا باب من أبواب الفتنة عظيم فتح على طلاب العلم في هذه الأزمان ، أسأل الله عز وجل أن يعصمنا وإخواننا طلاب العلم من مضلات الفتن ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

* * * * *

العجلة في التصنيف قبل التأهل له

ذكر الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع(٢/ ٢٨٣) عن الأصمعي قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: الإنسان في فسحة من عقله وفي سلامة من أفواه الناس مالم يضع كتابا ، أو يقل شعرا ، وقال العتابي:من صنع كتابا فقد استشرف للذم والمدح ، فإن أحسن فقد استهدف للحسد والغيبة ، وإن أساء فقد تعرض للشتم ، واستقذف بكل لسان ، وقال الإمام الشوكاني رحمه الله في آداب الطلب ص(٧٨): فبعدا وسحقا للمتجرئين على الله وعلى شريعته بالإقدام على التأليفات للناس مع قصورهم وعدم تأهلهم[١] وقد كثر هذا الصنع من جماعة يبرزون في معرفة مسائل الفقه التي هي مشوبة بالرأي ، إن لم يكن هو الغالب عليها ، ويتصدرون لتعليم الطلبة لهذا العلم ، ثم تكبر أنفسهم عندهم لما يجدونه من اجتماع الناس عليهم ، وأخذ العامة بأقوالهم في دينهم ، فيظنون أنهم قد عرفوا ما عرفه الناس ، وظفروا بما ظفر به علماء الشريعة المتصدرون لتأليف والكلام على مسائل الشريعة ، فيجمعون مؤلفات هي مما قمشت وطم حبل الحاطب صنع من لا يدري لمن لا يفهم ، ثم يأخذها عنهم من هو أجهل منهم ، وأقصر باعا في العلم ، فينتشر في العلم ، وتظهر في الملة الإسلامية فاقرة من الفواقر ، وقاصمة من القواصم ، وصاحبها لجهله يظن أنه قد تقرب إلى الله بأعظم القرب ، وتاجره بأحسن متاجرة ، وهو فاسد الظن ، باطل الاعتقاد ، مستحق لسخط الله وعقوبته ، لأنه أقدم في محل الإحجام ، وتحلى بما ليس له ، ودخل في غير مدخله ، ووضع جهله على أشرف الأمور وأعلاها وأولاها بالعلم والإتقان والتمييز وكمال الإدراك ،

---

(١) لقد وجد في أيامنا من يبدأ مع طالب العلم المبتدأ في الطلب بتحريضه علي التأليف والتصنيف ، ويمنيه بأنه سوف ينشر له ، فيتعلق بهذا الأمل وله يجتهد ، وربما نشر له جزءا أو جزأين ، ثم يجد الطريق مسدودا بعد ذلك ، فيأخذه الفتور ، وربما انصرف عن الطلب بالكلية ، ويتحمل وزره من لم ينصح له ، ويوجهه لطلب العلم النافع ويحرضه عليه ، ويعينه عليه بما يستطيع ، والله المستعان .

فهذا هو بمنزلة القاضي الذي لا يعلم بالحق، فهو في النار، سواء حكم بالحق أو بالباطل، بل هذا الذي أقدم على تصنيف الكتب وتحرير المجلدات في الشريعة الإسلامية مع قصوره وعدم بلوغه إلى ما لا بد لمن يتكلم في هذا الشأن منه أحق بالنار من ذلك القاضي الجاهل، لأنه لم يصب بجهل القاضي الجاهل مثل من أصيب بمصنفات هذا المصنف المقصر، ومن فتح الله عليه من معارفه بما يعرف به الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، لا يخفى عليه ما في هذه المصنفات الكائنة بأيدي الناس في كل مذهب، فإنه يقف من ذلك على العجب، ففي بعض المذاهب يرى أكثر ما يقف عليه في مصنف من مصنفات الفقه خلاف الحق، وفي بعضها يجد بعضه صوابا وبعضه خطأ، وفي بعضها يجد الصواب أكثر من الخطأ، ثم يعثر على ما يحرره مصنفو تلك الكتب من الأدلة لتلك المسائل التي قد دونوها، فيجد فيها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع، وقد جعلها المصنف شيئا واحدا، وعمل بها جميعا من غير تمييز، وعارض بين الصحيح والموضوع، وهو لا يدرى، ورجح الباطل على الصحيح وهو لايعلم، فما كان أحق هذا المصنف - لا كثر الله في أهل العلم من أمثاله - بأن يؤخذ على يده، ويقال له: اترك مالا يعنيك، ولا تشتغل بما ليس من شأنك، ولا تدخل فيما لامدخل لك فيه، إذا فات أهل عصره أن يأخذوا على يده، فلا ينبغي أن يفوت من بعدهم أن يأخذوا على أيدي الناس، ويحولوا بينهم وبين هذا الكتاب الذي لا يفرق مؤلفه بين الحق والباطل، ولا يميز بين ما هو من الشريعة وما ليس منها، فما أوجب هذا عليهم، فإن هذا المشؤوم قد جنى على الشريعة وأهلها جناية شديدة، وفعل منكرا عظيما، وهو يعتقد لجهله أنه قد نشر في الناس مسائل الدين، ويظن من اتبعه في الأخذ عنه أنهذا الذي جاء به هذا المصنف هو الشريعة، فانتشر بين الجاهلين أمر عظيم، وفتنة شديدة. انتهى.

وقال الذهبي رحمه الله في تذكرة الحفاظ(١/ ٤) في ترجمة أبي بكر الصديق رضي

الله عنه:فحق على المحدث أن يتورع في ما يؤديه ، وأن يسأل أهل المعرفة والورع ليعينوه على إيضاح مروياته ، ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذي يزكي نقلة الأخبار ويجرحهم جهبذا إلا بإدمان الطلب ، والفحص عن هذا الشأن ، وكثرة المذاكرة، والسهر ، والتيقظ ، والفهم مع التقوى والدين المتين ، والإنصاف ، والتردد إلى مجالس العلماء ، والتحري ، والإتقان ، وإلا تفعل:

فدع عنك الكتابة لست منها ::: ولو سودت وجهك بالمداد

قال الله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، فإن آنست يا هذا من نفسك فهما وصدقا ودينا وورعا ، وإلا فلا تتعن ، وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأي ولمذهب ، فبالله لا تتعب ، وإن عرفت أنك مخلط مخبط مهمل لحدود الله فأرحنا منك ، فبعد قليل ينكشف البهرج وينكب الزغل ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فقد نصحتك ، فعلم الحديث صلف، فأين علم الحديث؟ وأين أهله؟ كدت أن لا أراهم إلا في كتاب أو تحت تراب[1] انتهى .

* * * * *

---

(١) هذه طريقة القوم ، فأين هذا ممن يشجع الأحداث غير المتأهلين على التصنيف ليكتسب بهم صيتاً من كثرة عددهم وتفرق بلادهم ، فيتعلق هؤلاء بهذا الأمر لا بالله عز وجل ، وفي هذا يتنافسون ، وعليه يتحاسدون ، فشغلهم الشاغل أن فلانا نشر له كتاب ، وفلانا لم ينشر له ، وفلانا أخذ من كتابه مبلغ كذا وكذا ، وفي مثل هذا يدور كلامهم ، لا في تحصيل العلم النافع والتأصيل العلمي ، وحفظ العلم ونشره ، فمن يختلط بهؤلاء وعنده رغبة في تحصيل العلم لا يجد من يعينه عليه ، ولا من يذكره إذا نسي ، فإما أن يتأثر بهم أو يرحل عنهم ، فطلاب العلم الصادقون ليس لهم من يأخذ بأيديهم ولا من يعينهم ، فلهم الله ، وهو حسبنا جميعا ، وهو نعم الوكيل .

الإقدام على التحديث قبل التأهل

في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع(١/٣٢١): عن الثوري قال: تحب الرئاسة! تهيأ للنطاح . كان يقال: من طلب الرئاسة وقع في الدياسة ، وقال شعيب ابن حرب: من طلب الرئاسة ناطحته الكباش ، ومن رضي بأن يكون ذنبا أبي الله إلا أن يجعله رأسا ، وقال بقية بن الوليد: قال لي إبراهيم بن أدهم: يا بقية كن ذنبا ، ولا تكن رأسا ، فإن الذنب ينجو ، والرأس يذهب ، وقال بشر بن الحارث: إن الرئاسة تنزل من السماء ، فلا تصيب إلا رأس من لايريدها ، وقال يزيد بن هارون: من طلب الرئاسة في غير أوانه حرمه الله في أوانه ، وقال منصور الفقيه:

الكلب أهون عشرة ::: وهو في النهاية في الخساسة
ممن ينافس في الرئا ::: سة قبل أوقات الرئاسة

وقال قتادة: من حدث قبل حينه افتضح في حينه[1] ، وفي السير (١١/ ٩٩): قال عباس بن عبد العظيم عن هدبة بن خالد: إنه يحدث من كتب أمية بن خالد ، فقال الذهبي: رافق أخاه في الطلب ، وتشاركا في ضبط الكتب ، فساغ له أن يروي من كتب أخيه ، فكيف بالماضين لو رأونا اليوم نسمع من أي صحيفة مصحفة على أجهل شيخ له إجازة ، ونروي من نسخة أخرى بينهما من الاختلاف والغلط ألوان ، ففاضلنا يصحح ما تيسر من حفظه ، وطالبنا يتشاغل بكتابة أسماء الأطفال ، وعالمنا ينسخ ، وشيخنا ينام ، وطائفة من الشبيبة في واد آخر من المشاكلة والمحادثة ، لقد اشتفى بنا كل مبتدع ، ومجنا كل مؤمن ، أفهؤلاء الغثاء هم الذين يحفظون على الأمة دينها ؟ كلا والله . فرحم الله هدبة ، وأين مثل هدبة ؟ اهـ . ، وفي الحلية (٥/ ١٢٤): عن أبي إدريس الخولاني قال: لأن أرى في طائفة المسجد نارا تتقد أحب إلي من أن أرى فيها رجلا يقص ليس بفقيه ، وفي

---

(١) هذا إذا كان هناك من يقوم بواجب البلاغ ونشر العلم ، فإن لم يكن غيره وجب عليه القيام بذلك ، ففي الصحيح قال النبي ﷺ «بلغوا عني ولو آية» ، قال الخطيب رحمه الله في الجامع(١/ ٣٢٣): فإن احتيج إليه في رواية الحديث قبل أن تعلو سنه ، فيجب عليه أن يحدث ، ولا يمتنع لأن نشر العلم عند الحاجة إليه لازم ، والممتنع من ذلك عاص آثم .

الحلية (٦/٣١٦):عن خلف بن عمرو قال سمعت مالك بن أنس يقول: ما أجبت في الفتيا حتى سألت من هو أعلم مني: هل يراني موضعا لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، فقلت له: يا أبا عبد الله فلو نهوك؟ قال:كنت أنتهي، لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه، قال خلف: دخلت على مالك، فقال لي:انظر ما ترى تحت مصلاي، أو حصيري؟ فنظرت فإذا أنا بكتاب، فقال:اقرأه، فإذا فيه رؤيا رآها له بعض إخوانه، فقال: رأيت النبي ﷺ في المنام في مسجده قد اجتمع الناس عليه، فقال لهم: إني قد خبأت لكم تحت منبري طيبا أو علما، وأمرت مالكا أن يفرقه على الناس، فانصرف الناس وهم يقولون إذًا ينفذ مالك ما أمره به رسول الله ﷺ، ثم بكى، فقمت عنه، وفي الحلية (٧/ ٨١): عن الثوري قال: إذا ترأس الرجل سريعا أضر بكثير من العلم، وإذا طلب وطلب بلغ

* * * * *

شغل القلب بعداوة الناس ومجادلتهم

إن الحب في الله والبغض في الله لمن أوثق عرى الإيمان[١]، وقد قال النبي ﷺ:

«**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[٢]، ومع أهمية ذلك إلا أنه ينبغي لطالب العلم ألا يشغل نفسه بالخصومات، وعداوة الناس حتى لا يصرفه ذلك عن العلم

ففي الصحيحين من حديث جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «**اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه**»[٣]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: هجّرت إلى رسول الله ﷺ يوما . قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب ، فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب**» .[٤]، وفي رواية عنه قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسا ما أحب أن لي به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجرة ، إذ ذكروا آية من القرآن ، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مغضبا قد احمر وجهه يرميهم بالتراب ، ويقول: « **مهلا يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا، بل يصدق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه** » .[٥]، قال ابن مفلح في الآداب الشرعية(١/ ٢٠١): وقال عبدوس بن مالك العطار: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه

---

(١) بنحو هذا اللفظ ، ورد حديث حسنه شيخنا الألباني رحمه الله في الصحيحة(١٧٢٨)، ومن أراد الوقوف على كثير من طرقه فليرجع إلى مجمع الزوائد(١/ ٨٩ - ٩٠) .

(٢) رواه البخاري(١٦) ، ومسلم(٤٣) وغيرهما .

(٣) رواه البخاري(٥٠٦٠) ، ومسلم(٢٦٦٧) وغيرهما .

(٤) رواه مسلم(٢٦٦٦) وغيره .

(٥) رواه أحمد(٢/ ١٨١) ، ومواضع أخرى وغيره ، وإسناده حسن .

يقول: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين - إلى أن قال: لا تخاصم أحدا، ولا تناظره، ولا تتعلم الجدال، فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن وغيرها من السنن مكروه منهي عنه، لا يكون صاحبه - إن أصاب بكلامه السنة - من أهل السنة حتى يدع الجدال، وقال العباس بن غالب الوراق: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله أكون في المجلس ليس فيه من يعرف السنة غيري، فيتكلم متكلم مبتدع، أرد عليه؟ قال: لا تنصب نفسك لهذا، أخبر بالسنة، ولا تخاصم، فأعدت عليه القول، فقال: ما أراك إلا مخاصما، إلى أن قال: وقال رجل لأيوب السختياني: أكلمك بكلمة؟ قال: لا، ولا بنصف كلمة، وقال الأوزاعي: إذا أراد الله عز وجل بقوم شرًا فتح عليهم الجدال، ومنعهم العمل، وقال مالك: ليس هذا الجدل من الدين بشيء، وقال الشافعي رضي الله عنه: المراء في العلم يقسي القلوب، ويورث الضغائن، وروى أحمد حدثنا عبد الله بن نمير ثنا حجاج بن دينار الو اسطي عن أبي غالب عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾[1]، وقال ابن شريح: قل ما رأيت من المتفقهة من اشتغل بالكلام، فأفلح، يفوته الفقه ولا يصل إلى معرفة الكلام، وقال الحسن بن علي البربهاري في كتابه شرح السنة: واعلم أنه ليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الأمثال، ولا يتبع فيها الأهواء، وهو التصديق بآثار الرسول ﷺ بلا كيف ولا شرح، ولا يقال: لم، وكيف؟ .فالكلام والخصومة والجدال والمراء محدث يقدح الشك في القلب، وإن أصاب صاحبه الحق والسنة والحق - إلى أن قال: وإذا سألك رجل عن مسألة في هذا الباب، وهو مسترشد فكلمه وأرشده، وإن جاءك يناظرك فاحذره، فإن في المناظرة المراء والجدال والمغالبة والخصومة والغضب، وقد نهيت عن جميع هذا،

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد(٥/ ٢٥٢، ٢٥٦)، والترمذي(٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وحسنه شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح الجامع .

وهو يزيل عن الطريق الحق، ولم يبلغنا عن أحد من فقهائنا وعلمائنا أنه جادل أو ناظر أو خاصم[1]، وقال البربهاري: المجالسة للمناصحة فتح باب الفائدة، والمجالسة للمناظرة غلق باب الفائدة، انتهى كلامه. وقال ابن مفلح أيضا(٢/٨): وقال المروزي:أخبرت أبا عبد الله عن رجل سفيه يتكلم ويؤذي؟. قال: لا تعرضوا له، إنه من لم يقر بقليل ما يأتي به السفيه أقر بالكثير. وروى الخلال عن أبي جعفر الخطمي عن جده عمرو بن حبيب وكانت له صحبة أنه أوصى بنيه، فقال: إياكم ومجالسة السفهاء، فإن مجالستهم داء، وإنه من لم يقر بقليل ما يأتي به السفيه يقر بالكثير. قال ابن الجوزي: قالت الحكماء: السفه نباح الإنسان، وقال الشاعر: ومن يعض الكلب إن عضا[2]، وأنت ترى السبع إذا مر به السباع في السوق كيف تنبحه الكلاب، وتقرب منه، ولا يلتفت، ولا يعدها شيئا، إذ لو التفت كان نظيرا، ومتى أمسك عن الجاهل عاد ما عنده من العقل موبخا على قبح ما أتى به، وأقبل عليه الخلق لائمين له على سوء أدبه في حق من لا يجيبه، وقد قال الشاعر:

وأغيظ من ناداك من لا تجيبه ::: وما ندم حليم ولا ساكت

وإنما يندم المقدم على المقابلة والناطق، فإن شئت فاحتسب سكوتك عن السفيه أجرا لك، وإن شئت فاعدده احترازا من أن تقع في إثم، وإن شئت كان احتقارا له، وإن شئت كان سكوتك سببا لمعاونة الناس لك، وإن تلمحت القدر علمت أنه ما يسلط إلا مسلط، فرأيت الفعل من غيره إما عقوبة وإما مثوبة. انتهى. وقال برهان الدين الزرنوجي في تعليم المتعلم في طريق التعلم ص(٨٧): وينبغي ألا ينازع أحدا، ولا يخاصمهم، لأنه يضيع أوقاته، قيل: المحسن سيجزى بإحسانه، والمسيء

---

(١) يعني بذلك والله أعلم من يناظر أو يجادل ليظهر على الخصم، ويكون همه الانتصار على الخصم، وليس الوصول إلى الحق، كما هو حال كثير من الشباب الذين يضيعون كثيرا من أوقاتهم في الدفاع عن جماعة أو فكر أو شخص يعظمه، وكل منهم يريد أن ينتصر لرأيه لا للحق، فتضيع أوقاتهم، وتسرى بينهم العداوة والبغضاء، وأما الجدال والمناظرة للوصول إلى الحق، فلا بأس به، فقد قال الله عز وجل: ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾، وجادل إبراهيم الخليل عليه السلام قومه، وجادل ابن عباس رضي الله عنهما الخوارج إلى غير ذلك مما ثبت عن السلف، والله أعلم.

(٢) كذا بالأصل، ولعله انعض.

سيكفيه مساويه ، أنشدني الشيخ الإمام الزاهد العارف ركن الإسلام محمد بن أبي بكر ، المعروف بإمام (خواهر زادة)[١] مفتي الفريقين رحمه الله . قال أنشدني سلطان الشريعة والطريقة يوسف الهمداني رحمه الله: -

دع المرء لا تجزه على سوء فعله ::: سيكفيه ما فيه وما هو فاعله

قيل: من أراد أن يرغم أنف عدوه فليكرر السبق . وأُنشِدت:

إذا شئت أن تلقى عدوك راغماً ::: وتقتله غما وتحرقه هما
فرم العلا وازدد من العلم إنه ::: من ازداد علما زاد حاسده غما

قيل: عليك أن تشتغل بمصالح نفسك لا بقهر عدوك ، فإذا أقمت مصالح نفسك تضمن ذلك قهر عدوك[٢]، وإياك والمعاداة ، فإنها تفضحك ، وتضيع أوقاتك ، وعليك بالتحمل ، لا سيما من السفهاء ، قال عيسى ابن مريم عليه السلام: احتملوا من السفيه واحدة كي تربحوا عشرة ، وأُنشِدتْ لبعضهم: -

بلوت الناس قرنا بعد قرن ::: ولم أر غير ختال وقالي
ولم أرفي الخطوب أشد وقعا ::: وأصعب من معاداة الرجال
وذقت مرارة الأشياء طرا ::: وما ذقت أمر من السؤال

وإياك أن تظن بالمؤمن سوءا ، فإنه منشأ العداوة ، ولا يحل ذلك لقوله عليه السلام: «**ظنوا بالمؤمنين خيرا**»[٣]، وإنما ينشأ ذلك من خبث النية ، وسوء السريرة كما قال أبو الطيب رحمه الله:

إذا ساء فعل المرء ساء ظنونه ::: وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته ::: وأصبح في ليل من الشك مظلم.

وأنشدت لبعضهم:

---

(١) في الأنساب: أبو بكر محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين ، فلا أدري هو هذا أم ابنه ، والظاهر أنه هو ، والله أعلم .

(٢) يعني بالاشتغال في طلب العلم النافع فإن المصلحة كل المصلحة في تحصيل العلم النافع ، قال الله عز وجل: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ .

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وفي هذا المعنى قوله تعالى ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ﴾ ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ : «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» .

تـــنح عـــن القبـــيح ولا تـــرده ::: ومـــن أوليـــته حســـناً فـــزده
ســتكفى مـــن عـــدوك كـــل كيد ::: إذا كـــاد العـــدو فـــلا تكـــده

وأنشدت للشيخ العميد أبي الفتح البستي رحمه الله:

ذو العقـــل لا يســـلم مـــن جـــاهل ::: يســـوقه ظـــلما وإعـــناتا
فليخـــتر الســـلم عـــلى حـــربه ::: ولـــيلزم الإنصـــات إنصـــاتا

وفي الحلية (٣/ ١٨٤): عن أبي جعفر الباقر قال: إياكم والخصومة ، فإنها تفسد القلب ، وتورث النفاق . وقد روي ذلك في الحلية أيضا(٣/ ١٩٨) عن جعفر الصادق .

* * * * *

الجرأة على الفتيا
والاستنكاف عن قول (لا أدري)

إن هذه لآفة عظيمة تصيب طالب العلم في مقتل، وهي أن يستكبر أن يقول فيما لا يعلم (لا أعلم)، وقد حذر علماء الأمة من ذلك أشد التحذير، وبسطوا القول في ذلك لعظم الجرم في القول على الله بغير علم، فقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وفيما نهى عنه عز وجل: ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

وقال الله عز وجل: ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ ﴾، والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

قال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٤٩): قال الله تبارك وتعالى: ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾.

وقال تعالي: ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾، وقال تعالي: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾، وكانت الصحابة رضوان الله عليهم لا تكاد تفتي إلا فيما نزل، ثقة منهم بأن الله تعالى يوفق عند نزول الحادثة للجواب عنها، وكان كل واحد منهم يود أن صاحبه كفاه الفتوى، وساق بإسناده عن البراء قال: لقد رأيت ثلاثمائةمن أهل بدر ما منهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى[1]، وفي الحلية (٤/ ٢٢٠): عن زبيد قال: ما سألت إبراهيم (يعني النخعي) قط عن شيء إلا رأيت الكراهية في وجهه.

وعن منصور عنه بنحوه، وزاد يقول: أرجو أن تكون، وعسى.

وفي الحلية (٤/ ٢٢٦): عن سفيان عن أبيه عن إبراهيم قال: سألته عن شيء فجعل يتعجب، يقول: احتيج إلي!، احتيج إلي!.

---

(١) أين هذا من طلاب العلم اليوم الذين لا تكاد تجد أحدهم يحيل فيما يسأل عنه على غيره من أهل العلم؟ بل إن بعضهم يستشرف للسؤال، فيقول للناس: سلوني، سلوني، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

وعن أبي حصين قال: أتيت إبراهيم أسأله عن شيء، فقال: ما وجدت أحدا فيما بيني وبينك تسأله غيري.

وقال الشافعي: ما رأيت أحدا جمع الله فيه من آلة الفتيا ما جمع في ابن عيينة، أسكت عن الفتيا منه.

وقال ابن عيينة: أعلم الناس بالفتوى أسكتهم فيه، وأجهل الناس بالفتوى أنطقهم فيه

قال الخطيب: وقل من حرص على الفتوى، وسابق إليها، وثابر عليها إلا قل توفيقه، واضطرب في أمره، وإذا كان كارها لذلك غير مختار له، ما وجد مندوحة عنه، وقدر أن يحيل بالأمر فيه على غيره كانت المعونة له من الله أكثر، والصلاح في فتواه وجوابه أغلب، وقد قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة «**يا عبد الرحمن. لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها**»[1]، ثم ساق بإسناده عن بشر بن الحارث قال: من أحب أن يسأل فليس بأهل أن يسأل.

وقال عطاء بن السائب: أدركت أقواما إن كان أحدهم ليسأل عن الشيء، فيتكلم وإنه ليرعد.

وعن أشعث بن عبد الله الحداني عن محمد بن سيرين أنه كان إذا سئل عن شيء من الفقه (الحلال والحرام) تغير لونه، وتبدل، حتى كأنه ليس بالذي كان.

وفي جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١١٢٣) عن ابن عباس وابن مسعود قالا: إن الذي يفتي الناس في كل ما يسألونه لمجنون.

وقالت الملائكة: «**سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**».

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره: الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم (الله أعلم)، و(لا أدري)، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء،

---

(١) رواه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢) وغيرهما.

لكن قد أخبر الصادق أن بموت العلماء يقبض العلم ، فيبقى ناس جهال يستفتون ، فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون ، وأما ما ورد من الأخبار عن النبي ﷺ وعلى آله وأصحابه والتابعين بعدهم في معنى الآية ، فروى البستي في المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: أي البقاع شر؟ قال:«**لا أدري حتى أسأل جبريل** »، فسأل جبريل ، فقال:« **لا أدري حتى أسأل ميكائيل**» ، فجاء ، فقال: خير البقاع المساجد ، وشرها الأسواق[1] ، وقال الصديق للجدة: ارجعي حتى أسأل الناس ، وكان علي يقول: وابردها عن الكبد ثلاث مرات ، قالوا: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يسأل الرجل عما لا يعلم ، فيقول: الله أعلم ، وسأل ابن عمر رجل عن مسألة ، فقال: لا علم لي بها ، فلما أدبر الرجل قال ابن عمر: نعم ما قال ابن عمر ، سئل عما لا يعلم ، فقال: لاعلم لي به ، وذكره الدارمي في مسنده .[2]

وفي صحيح مسلم عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل صاحب بهية قال: كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد ، فقال يحيى للقاسم: يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيم أن يسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه علم ولا فرج ، أو علم ولا مخرج ! ، فقال له القاسم: وعم ذاك ؟ فقال: لأنك ابن إمامي هدى: ابن أبي بكر وعمر ، قال: يقول له القاسم: أقبح من ذلك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة ، فسكت ، فما أجابه .[3]

وقال مالك بن أنس: سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده (لا أدري) حتى يكون أصلا في أيديهم ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري ، وذكر الهيثم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة ، فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري .

قلت: ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك

---

(١) رواه ابن حبان كما في الإحسان(١٥٩٩) ، وفي إسناده عطاء بن السائب صدوق مختلط ، والراوي عنه جرير بن عبد الحميد ، روي عنه بعد الاختلاط .

(٢) سنن الدرامي(١/ ٧٤)رقم(١٧٩) .

(٣) أورده مسلم في مقدمة صحيحه ص(٩٠ - ٩١)شرح النووي . ط دار الكتب العلمية .

ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم .

قال ابن عبد البر:من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه ، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم ، روي يونس بن عبد الأعلى قال سمعت ابن وهب يقول سمعت مالك ابن أنس يقول: ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف .

قال القرطبي:هذا في زمن مالك ، فكيف في زماننا اليوم الذي عم فينا الفساد ، وكثر فيه الطغام ، وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يقسي القلب ويورث الضغن؟ ، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى .[1]، أين هذا مما روي عن عمر رضي الله عنه ، وقد قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ، ولو كانت بنت ذي العصبة -يعني يزيد بن الحصين الحارثي -فمن زاد ألقيت زياداته في بيت المال ، فقامت امرأة من صوب النساء طويلة فيها فطس ، فقالت: ما ذلك لك! قال: ولم؟

قالت: لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ ، فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ!، وروى وكيع عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي قال:سأل رجل عليا رضي الله عنه عن مسألة فقال فيها ، فقال الرجل:ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ، فقال علي: أصبتَ وأخطأتُ وفوق كل ذي علم عليم .

وذكر أبو محمد قاسم بن أصبغ قال:لما رحلت إلى المشرق نزلت القيروان ، فأخذت على بكر بن حماد حديث مسدد ، ثم رحلت إلى بغداد ، ولقيت الناس ، فلما انصرفت عدت إليه لتمام حديث مسدد ، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبي ﷺ «**أنه قدم عليه من مضر مجتابي النمار**[2]» ، فقال: إنما هو مجتابي الثمار ، فقلت: إنما هو

---

(١) إذا قال القرطبي هذا في زمانه فماذا نقول نحن عن أهل زماننا الذي صارت فيه معظم الخصومات بين المنتسبين إلى العلم على الدنيا ، وصار هم كثير منهم الشهرة ، وجمع الناس حولهم ، وليس حول الدين ، لأن أحدهم لا يرضى لنفسه شريكا ولا معينا ولا خليفة ، إذا وجد وجد أتباعه ، وإذا ذهب ذهبوا ، وهو يفرح بذلك لأن نفسه تمنيه بأنه لم يخلف من يسد مكانه ، والله المستعان .

(٢) رواه مسلم(١٠١٧) .

مجتابي النمار، هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق، فقال لي: بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا أو نحو هذا، ثم قال لي: قم بنا إلى ذلك الشيخ - لشيخ كان في المسجد - فإن لنا بمثل هذا علما، فقمنا إليه، فسألناه عن ذلك، فقال: إنما هو مجتابي النمار كما قلت، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم، والنمار جمع نمرة، فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه: رغم أنفي للحق، وانصرف، وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فأحسن:

إذا ما تحدثت في مجلس ::: تناهى حديثي إلى ما علمت
ولم أعْدُ علمي إلى غيره ::: وكان إذا ما تناهى سكت

انتهى كلام القرطبي رحمه الله.

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية(٢/ ٥٨): قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ترك العالم (لا أدري)أصيبت مقاتله، وكذا قال علي بن الحسين، وقال مالك: كان يقال: إذا أغفل العالم (لا أدري) أصيبت مقاتله، وقال أيضا: كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين وسيد العالمين يسأل عن الشيء، فلا يجيب حتى يأتيه الوحي من السماء، وقال الشعبي: (لا أدري) نصف العلم، وقال أحمد في رواية المروذي: كان مالك يسأل عن الشيء، فيقدم و يؤخر يثهت[١]، وهؤلاء يقيسون على قوله، ويقولون: قال مالك، وبإسناد حسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من علم الرجل أن يقول لما لا يعلم (الله أعلم)، لأن الله عز وجل قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾، وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدري، وقال أحمد في رواية المروذي: ليس كل شيء ينبغي أن يتكلم فيه، وذكر أحاديث النبي ﷺ كان يسأل، فيقول: لا أدري حتى أسأل جبريل، وقال عبد الله سمعت أبي يقول: كان سفيان لا يكاد يفتي في الطلاق، ويقول: من يحسن ذا؟ من يحسن ذا؟[٢]،

---

(١) يعني: يصيح.
(٢) سبحان الله، ما أورعهم، ولكننا مع قلة علمنا نفتي في مثل ذلك، فنسأ ل الله عز وجل أن يعفو عنا.

وقال في رواية أبي الحارث: وددت أنه لا يسألني أحد عن مسألة ، أو ما شيء أشد علي من أن أسأل عن هذه المسائل ، البلاء يخرجه الرجل عن عنقه ، ويقلدك ، وخاصة مسائل الطلاق والفروج ، نسأل الله العافية ، ونقل الأثرم أنه سأل عن شيء فقلت: كيف هو عندك؟ فقال: وما عندي أنا؟

وسمعته يقول: إنما هو - يعني العلم - ما جاء من فوق .

وقال سفيان: لقد كان الرجل يستفتى ، فيفتي وهو يرعد ، وقال سفيان: من فتنة الرجل إذا كان فقيها أن يكون الكلام أحب إليه من السكوت .

وقال المروذي: قلت لأبي عبد الله: إن العالم يظنونه عنده علم كل شيء .

فقال: قال ابن مسعود ﷺ: إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون ، وأنكر أبو عبد الله على من يتهجم في المسائل والجوابات .

وسمعت أبا عبد الله يقول: ليتق الله عبد ، ولينظر ما يقول وما يتكلم ، فإنه مسؤول ، وقال: من أفتى الناس ليس ينبغي أن يحمل الناس على مذهبه ، ويشدد عليهم .

وقال في رواية ابن القاسم: إنما ينبغي أن يؤمر الناس بالأمر البين الذي لا شك فيه ، وليت الناس إذا أمروا بالشيء الصحيح أن لا يجاوزوه ، ونقل محمد بن أبي طاهر عنه أنه سئل عن مسألة في الطلاق ، فقال: سل غيري ليس لي أفتي في الطلاق بشيء، وقال في رواية ابن منصور: لا ينبغي أن يجيب في كل ما يستفتى .

وصح عن مالك أنه قال: ذل وإهانة للعلم أن تجيب كل من سألك ، وقال أيضا: كل من أخبر الناس بكل ما يسمع فهو مجنون ، وقال أحمد في رواية أحمد ابن علي الأبار ، وقال له رجل حلفت بيمين لا أرى إيش هي؟

قال: ليت أنك إذا دريت دريت [1] أنا ، وقال في رواية الأثرم: إذا هاب الرجل شيئا فلا ينبغي أن يحمل على أن يقول . انتهى المراد منه .

---

(١) سقطت من الأصل المطبوع ، وهي مثبتة في غيره من المصادر ، وهو الأنسب للسياق .

وقال الشيخ الفاضل بكر بن عبد الله أبو زيد في كتاب التعالم ص(٣٢)نقلا عن ابن القيم رحمه الله: قال ربيعة: ولبعض من يفتي ههنا أحق بالحبس من السراق .

قال بعض العلماء:فكيف لو رأى ربيعة زماننا ، وإقدام من لا علم عنده على الفتيا ، وتوثبه عليها ، ومد باع التكلف إليها ، وتسلقه بالجهل والجرأة عليها مع قلة الخبرة وسوء السيرة ، وشؤم السريرة ، وهو من بين أهل العلم منكر أو غريب فليس له في معرفة الكتاب والسنة وآثار السلف نصيب ، ولا يبدي جوابا بإحسان ، وإن ساعد القدر فتواه فتراه لعله فتراه: كذلك يقول فلان بن فلان:

يمدون لإفتاء باعا قصيرة ::: وأكثرهم عند الفتاوى يُكَذْلك

وكثير منهم نصيبهم مثل ما حكاه أبو محمد بن حزم قال: كان عندنا مفتي قليل البضاعة ، فكان لا يفتي حتى يتقدمه من يكتب الجواب ، فيكتب تحته: جوابي مثل جواب الشيخ ، فقدر أن اختلف مفتيان في جواب ، فكتب تحتهما: جوابي مثل جواب الشيخين ، فقيل له: إنهما قد تناقضا ، فقال: وأنا أيضا قد تناقضت كما تناقضا .

وقد أقام الله سبحانه لكل عالم ورئيس وفاضل من يظهر مماثلته ، ويرى الجهال ، وهم الأكثرون مساجلته ومشاكلته ، وأنه يجري معه في الميدان ، وأنهما عند المسابقة كفرسي رهان ، ولا سيما إذا طول الأردان ، وأرخى الذوائب الطويلة وراءه كذنب الأتان ، وهدر باللسان ، وخلا له الميدان الطويل من الفرسان:

فلو لبس الحمار ثياب خز ::: لقال الناس يا لك من حمار

وهذا الضرب إنما يستفتون بالشكل لا بالفضل ، وبالمناصب لا بالأهلية ، قد غرهم عكوف من لا علم عنده عليهم ، ومسارعة أجهل منهم إليهم ، تعج منهم الحقوق إلى الله عجيجا ، وتضج منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجا ، فمن أقدم بالجرأة على ما ليس له بأهل من فتيا أو قضاء أو تدريس: استحق اسم الذم ، ولم يحل قبول فتواه ، ولا قضائه ، هذا حكم دين الإسلام:

وإن رغمت أنوف من أناس ::: فقل يارب لا ترغم سواها

انتهى كلام ابن القيم رحمه الله .

قال الشيخ بكر:وحقا إن المتعالم يفعل بنفسه ما لا يفعله العدو بعدوه ، فإلى الله الشكوى من تذاؤب أهل زماني .

وقد جرب على هذا الصنف الاستنكاف من قول(لا أدري) ، فمن لي بثعلب إمام الكوفيين م سنة ٢٩١هـ رحمه الله تعالى لما سأله سائل عن شيء ، فقال: لا أدري ، فقال له: أتقول:لا أدري ، وإليك تضرب أكباد الإبل ، وإليك الرحلة من كل بلد .

فقال ثعلب: لو كان لأمك بعدد لا أدري بعر لاستغنت ، وفي ترجمة عطاء بن أبي رباح أنه كان يقول (لا أدري) نصف العلم ، (ويقال) نصف الجهل .

وقال في ص(٤١):يجب على من بسط الله يده أن يقيم سوق الحجر في الفتيا على المتعالمين ، فإن الحجر لاستصلاح الأديان أولى من الحجر لاستصلاح الأبدان والأموال ، وإن الوالي إن لم يجعل على الفتيا كبلا فسيسمع لها طبلا ، وأن لا يمكن من بذل العلم إلا المتأهل له . انتهى .

وقد أطلت في هذا الباب نظرا لخطورته وكثرة الهالكين فيه ، والعياذ بالله ، نسأل الله السلامة والعافية .

* * * * *

عدم اهتمام بعض الطلبة بتدبير معيشته

إن ديننا الإسلام وسط في جميع أموره ، وسط بين المُفْرط والمُفَرط ، وبين الجافي والغالي ، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ، ففي أمور النفقة ، وتدبير العيش نجد بعض الناس ينفق بلا حساب حتى لا يجد شيئاً ، وبعضهم يمسك حتى لا يؤدي ماعليه من الحقوق ، ولا ينفق في أبواب الخير خشية الفقر ، وكلا الطائفتين مذمومتان ، فالله عز وجل يقول: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾

وقال الله عز وجل: ﴿ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

وبعض الطلبة ربما كان عنده مال كثير ، فينفقه في أول أمره بلا حساب وبلا تدبير ، ثم بعد ذلك ربما ضاق به الحال ، فيمد يده للناس أو ينصرف عن طلب العلم وتحصيله بالكلية ، ليكتسب المال بعد أن ذاق ذل الحاجة ، والسبب في ذلك عدم التدبير في أمر معيشته ، وهو خلاف الشرع كما ورد في الأدلة السابقة .

وروى النسائي بإسناد حسن(٣/ ٥٤)عن عطاء بن السائب عن أبيه قال صلى بنا عمار بن ياسر صلاة ، فأوجز فيها ، فقال له بعض القوم: لقد خففت أو أوجزت الصلاة ، فقال: أما على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ فلما قام تبعه رجل من القوم هو أبي غير أنه كنى عن نفسه ، فسأله عن الدعاء ، ثم جاء ، فأخبر به القوم: **«اللهم بعلمك الغيب وقدرتك علي الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضاء بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»** .

وفي جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر(١/ ٧٢٣)عن سعيد بن الجهم الجيزي قال:جمع عبد الرحمن بن شريح عمرو بن الحارث الصف في المسجد ، فلما

سلم الإمام قال ابن شريح لعمرو بن الحارث: يا أبا أمية ما تقول في رجل ورث مالاً حلالاً ،فأراد أن يَخْرُج من جميعه إلى الله زهدا في الدنيا ورغبة فيما عنده؟

قال: لا تفعل . قال ابن شريح: فقلت لعمرو: سبحان الله ، لا يفعل ، لا يزهد في الدنيا؟!، قال عمرو بن الحارث: ما أدب الله عز وجل به نبيه أفضل من ذلك ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ ، ولكن يقدم بعضاً ، ويمسك بعضاً .

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية(١/ ٢٢٠):

وأكثر الناس لا ينظرون في العواقب ، فكم من مخاصم سب ، وشتم ، وطلق ، فلما أفاق ندم ، وقد كان يوسف بن أسباط يزهد ، ودفن كتبه ، فلم يصبر عن الحديث ، فحدث من حفظه ، فغلط ، فضعفوه ، وقد تزهد خلق كثير ، فأخرجوا ما بأيديهم ، ثم احتاجوا ، فدخلوا في مكروهات ، وكان الشبلي يقدر على خمسين ألفا ، فتزهد ، وفرقها ، فنزل به قوم من الصوفية ، فبعث إلى بعض أرباب الدنيا يطلب منه ، فقال له: يا شبلي اطلب من الله عز وجل! ، فقال له: أنا أطلب من الله عز وجل ، وأطلب الدنيا من خسيس مثلك ، فبعث إليه مائة دينار .

وقال ابن عقيل:إن كان بعث إليه اتقاء ذمه فقد أكل الشبلي الحرام ، وقد تزهد أبو حامد الطوسي ، وأقام سنين ببيت المقدس، ثم عاد إلى وطنه ، فبنى دارا كبيرة ، وغرس بستانا .فمثل هذا المتزهد المخرج لماله كمعير لباسه ، كمثل ماء عمل له سكر[1]، فإنه يمنعه من الجريان ، ثم يعمل في باطن السكر إلى أن ينقب ، ولهذا كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا رأى شبانا قد تنسكوا يقول: الموت الموت جاءهم ، خوفا من تغير حالهم ،وكذلك مخرج المال في حال الغنى إذا لم يحسب وقوع الفقر .

قد رأينا أبا الحسن الغزنوي ، وقد بنى له رباطا ببغداد ، ووقفت عليه قرية ، فكان يقول يدخل لي في كل سنة ثلاثة آلاف وستمائة دينار ، فألف ومائتان لي

---

(١) السِكْر: ما يسد به مجرى الماء .

ولأولادي وألف ومائتان لأهل الرباط ، وألف ومائتان للمجلس ، فكان يعطي العلماء والقراء والزهاد ، ولا يقبل منه أحد ، حتى إنه أفطر في رمضان عند الوزير أبي القاسم الزيني ، فبعث إليه خلعة قبل العيد ، وهذه عادتهم فيمن يفطر عندهم ، فحدثني الحاجب أنه حملها إليه ، فقال: لا أقبل ، قال: فقبحت له هذا ، وبالغت حتى قبل على مضض ، وكان يقول عرضت علي خمسة آلاف دينار ، فدفعتها بهذه الأصابع الخمس ، وقلت:لا حاجة لي فيها ، وكان يظن دوام ما هو فيه ، فاتفق موت السلطان مسعود ، فأحضر باب الحاكم ، ووكل به ، وأخذت منه القرية ، فافتقر ، فحدثني محاسن بن حماد(كذا) قال:كان بين الغزنوي وبين عبد الرحيم الملقب شيخ الشيوخ وحشة ، فلما افتقر الغزنوي بعث معي إليه بمائة دينار ورقعة بكارات دقيق ، فجئت بها إليه ، فقال:لا أقبل ، فردها عليه ، ثم التفت إلي لانبساط كان بيننا ، فقال لي:أغنني أنت بعشرة دنانير وخمس كارات ، فالصبيان جياع .

وكان يقول:من الناس من يحب الموت ، فمات قريبا ، وقد كان يمكنه أن يشتري من دجلة قرى ، والحازم من يحفظ ما في يده ، كما قال سفيان الثوري: من كان بيده شيء من المال فليجعله في قرن ثور ، فإنه زمان من احتاج فيه كان أول من يبذل دينه ، وقد كان صالح بن الإمام أحمد تولى القضاء بأصبهان ، فلما قرئ[1] عهده بكى ، وقال: أين عين أبي تراني وعلي السواد؟ ولكن ما توليت حتى ركبني الدين ، وكثر العيال ، وكذلك يحكى عن حفص بن غياث وغيره من القضاة ، وقد كان المتوكل يبعث إلى أولاد الإمام أحمد الألوف ، وإنما كان صالح سخيا ، فالسخي الذي لا يحسب إلا خيراً ، لا يفي سخاؤه بما يلقى إذا افتقر .

واعلم أن الإمساك في حق الكريم جهاد ، لأنه قد ألف الكرم ، كما أن إخراج ما في يد البخيل جهاد ، فإنما يستعين الكريم على الإمساك بذكر الحاجة إلى الأنذال .

قيل لبعض الحكماء: لم حفظت الفلاسفة المال؟

---

(١) كذا بالمطبوع ، ولعلها: قرب .

فقال: لئلا يقفوا مواقف لا تليق بهم .

قال ابن الجوزي: وقد رأيت أنا ببغداد من الصوفية من كان له مال ودخل ، فكان الخلق يتقربون إلى السلاطين ، ويطلبون منهم ، وهو لا يبالي ، فكنت أغبطه على ذلك ، لأن من احتاج إلى السلاطين يذلونه ويحتقرونه ، وربما منعوه ، فإن أعطوه أخذوا من دينه أكثر ، قال الرشيد لمالك بن أنس: أتيناك ، فانتفعنا ، وأتى سفيان بن عيينة فلم ننتفع به ، وكان ابن عيينة يقول: قد كنت أوتيت فهماً في القرآن ، فلما أخذت من مال أبي جعفر حرمت ذلك .

وإن احتاج الإنسان إلى العوام بخلوا ، فإن أعطوا تضجروا ، ومنوا ، وقل من رأيناه ينافق أو يرائي أو يتواضع لصاحب دنيا إلا لأجل الدنيا ، والحاجة تدعو إلى كل محنة ، قال بشر الحافي: لو أن لي دجاجة أعولها خفت أن أكون عشارا على الجسر ، فينبغي للعاقل أن يجمع همه ، ليقبل على العلم والعمل بقلب فارغ من الهم ، وبعد فإذا صدقت نية العبد وقصده رزقه الله تعالى ، وحفظه من الذل ، ودخل في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ انتهى .

وفي السير(٥/ ٣٣٨): إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا داود بن عبد الله سمعت مالكا يقول: كان ابن شهاب من أسخى الناس ، فلما أصاب تلك الأموال ، قال له مولى له وهو يعظه: قد رأيت ما مر عليك من الضيق فانظر كيف تكون ؟ أمسك عليك مالك ، قال: إن الكريم لا تحنكه التجارب ، وفي السير أيضا(٥/ ٣٤٢): الوليد بن مسلم حدثنا سعيد بن عبد العزيز أنبأنا الزهري قال لهشام: اقض ديني ، قال: وكم هو؟

قال: ثمانية عشر ألف دينار .

قال: إني أخاف إن قضيتها عنك أن تعود ، فقال: قال النبي ﷺ «**لا يلدغ المؤمن**

من جحر مرتين»[١]، فقضاها عنه .

قال: فما مات الزهري حتى استدان مثلها، فبيعت شغب[٢]، فقضي دينه .

وفي الحلية (٦/ ٣٨١): عن عبد الله بن محمد الباهلي قال: جاء رجل إلى الثوري، فقال: يا أبا عبد الله تمسك هذه الدنانير؟ فقال: اسكت، لولا هذه الدنانير لتمندل بنا هؤلاء الملوك، قال: وقال سفيان: من كان في يده من هذه شيء فليصلحه، فإنه زمان من احتاج كان أول ما يبذل دينه، قال: وجاءه رجل، فقال: يا أبا عبد الله إني أريد الحج، قال: لا تصحب من يكرم عليك، فإن ساويته في النفقة أضر بك، وإن تفضل عليك استذلك .

* * * * *

(١) رواه البخاري(٦١٣٣)، ومسلم(٢٩٩٨) وغيرهما من طريق الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة مرفوعا به .

(٢) شغب: ضيعة خلف وادي القرى، كما في معجم البلدان .

ترك الاكتساب والتطلع لما في أيدي الناس

قال الخطيب البغدادي في الجامع(١/ ٩٧): ذكر ما يجب على طالب الحديث من الاحتراف للعيال، واكتساب الحلال: إذا كان للطالب عيال لا كاسب لهم غيره فيكره له أن ينقطع عن معيشته، ويشتغل بالحديث عن الاحتراف لهم، ثم ذكر بإسناده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «**كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت**»[1].

وعن الثوري قال: عليك بعمل الأبطال: الكسب من الحلال، والإنفاق على العيال.

وعن عبد الرحيم بن سليمان الرازي قال: كنا عند سفيان الثوري، فكان إذا أتاه الرجل يطلب العلم سأله: هل لك وجه معيشة؟ فإن أخبره أنه في كفاية أمره بطلب العلم، وإن لم يكن في كفاية أمره بطلب المعاش. انتهى المراد منه.

وفي جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر(١/ ٧٢٠) عن سعيد بن المسيب، قال: لا خير فيمن لم يجمع المال يكف به وجهه، ويؤدي أمانته.

وقال أيضا وقد ترك أربعمائة دينار: والله إني ما تركتها إلا لأصون بها عرضي أو وجهي.

وعن أبي قلابة قال: لا تضركم دنيا إذا شكرتموها لله عز وجل.

وقال أيوب: وكان أبو قلابة يقول لي: يا أيوب الزم سوقك، فإن الغنى من العافية.

ثم قال ابن عبد البر: هذه الآثار كلها إنما أوردناها هاهنا لئلا يظن ظان جاهل بما يرى في هذا الباب أن طلب المال من وجهه للكفاف والاستغناء عن الناس هو طلب الدنيا المكروهة الممنوع منه، فإنه ليس كذلك، رحم الله أبا الدرداء إنه يقول: من فقه الرجل المسلم استصلاحه معيشته.

---

(١) رواه مسلم (٩٩٦).

وقال أبو الدرداء أيضا:

صلاح المعيشة من صلاح الدين، وصلاح الدين من صلاح العقل.

وذكر عنه أيضا قال: ليس من حبك الدنيا التماسك ما يصلحك منها.

وكان يقول: من فقهك عويمر: إصلاحك معيشتك. انتهى المراد منه.

وفي الآداب الشرعية (١/ ٢١٩) نقلا عن ابن الجوزي رحمه الله: مثل المحب للعلم مثل العاشق، فإن العاشق يهتم بمعشوقه ويهيم به، وكذلك المحب للعلم، فكما أن العاشق يبيع أملاكه، وينفقها على معشوقه، فيفتقر كذلك محب العلم، فإنه يستغرق في طلبه العمر، فيذهب ماله، ولا يتفرغ للكسب، فإذا احتاج دخل في مداخل صعبة، فمنهم من يتعلق بالسلاطين إما أن يدخل في أشغالهم أو يطلب منهم، ومن العلماء من يطلب من العوام البخلاء، ومنهم من يرجع عن الجد في العلم إلى الكسب. وقد كان للعلماء قديما حظ من بيت المال يغنيهم، وكان فيهم من يعيش في ظل السلطان كأبي عبيد مع ابن طاهر، والزجاج مع ابن وهب، ثم كان للعلماء من يراعيهم من الإخوان حتى قال ابن المبارك: لولا فلان وفلان ما اتجرت، وكان يبعث بالمال إلى الفضيل وغيرهم، ثم قال[1] ذلك المعنى، فصار أقوام من التجار يفتقدون العلماء بالزكاة، فيندفع الزمان، وقد وصلنا إلى زمان تقطعت فيه هذه الأسباب، حتى لو احتاج العالم، فطلب لم يعط[2]، فأولى الناس بحفظ المال، وتنمية اليسير منه والقناعة بقليله توفيرا لحفظ الدين والجاه والسلامة من منن العوام الأراذل العالم الذي فيه دين، وله أنفة من الذل، وقد قال منصور بن المعتمر: إن الرجل ليسقيني شربة

---

(١) كذا بالأصل، ولعلها: ثم قل.

(٢) هذا قبيح من العوام من أصحاب الأموال، فما بالك بمن استؤمن على مال ليوصله لطلبة العلم، فلا يعطيه حتى يذيق آخذه من الذل والهوان ما الله به عليم، ومع ذلك فهو ممن ينسب لعلم، فنقول: يا هذا إنها أمانة وستكون يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، ووضعها في حقها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

من ماء، فكأنه دق ضلعا من أضلاعي، وقد كان أقوام في الجاهلية إذا افتقروا لا يرون سؤال الناس، فيخرجون إلى جبل، فيموتون فيه.

فإذا اتفق للعالم عائلة وحاجات، وكفت أكف الناس عنه، ومنعته أنفته من الذل هلك، فالأولى لمثل هذا العالم في هذا الزمان المظلم أن يجتهد في كسب إن قدر عليه، وإن أمكنه نسخ بأجرة، ويدبر ما يحصل له، ويدخر الشيء لحاجة تعرض لئلا يحتاج إلى نذل. وقد يتفق للعالم مرفق، فينفق، ولا يدخر عملا بمقتضى الحال ونسيانا لما يجوز وقوعه من انقطاع المرفق، وطبعا في نفسه من البذل والكرم، فيخرج ما في يده، فينقطع مرفقه، فيلاقي من الضرر أو من الذل ما يكون الموت دونه.

فلا ينبغي للعاقل أن يعمل بمقتضى الحال الحاضرة، بل يصور كل ما يجوز وقوعه. انتهى.

هكذا نبه أئمتنا على ضرورة طلب الكسب لطالب العلم حتى لا يحتاج لنذل، فيذل، ولا يشغله الكسب عن مواصلة الطلب، فيوازن بين أموره حتى لا يطغى شيء على شيء، ولا واجب على واجب، فقد روى البخاري في صحيحه (١٩٦٨) عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: آخى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاما، فقال له: كل. قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فذكر ذلك له، فقال له النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « **صدق سلمان** ».

وفي الآداب الشرعية أيضا (٣/ ٢٦٩): وقال المروزي: سمعت رجلا يقول لأبي

عبد الله: أني في كفاية ، قال:الزم السوق تصل به الرحم ، وتعود به على نفسك ، وقال أحمد للميموني: استغن عن الناس ، فلم أر مثل الغنى عن الناس ، وقال رجل للفضيل بن عياض رحمه الله: لو أن رجلا قعد في بيته ، وزعم أنه يثق بالله فيأتيه برزقه؟ قال: إذا وثق به حتى يعلم أنه قد وثق به لم يمنعه شيء أراده ، ولكن لم يفعل هذا الأنبياء ولا غيرهم ، وقد قال تعالى: ﴿ **وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ ، ولابد من طلب المعيشة . انتهى المراد منه .

فالموازنة بين الحقوق أمر يفوت كثيرا من طلاب العلم ، فربما ترك بعضهم العمل بالكلية حتى ينفد ما في يده فإما أن يحتاج إلى الناس وإما أن ينصرف عن العلم بالكلية لاشتغاله بالكسب ، والموفق من رزقه الله التوفيق بين الكسب وطلب العلم ، ولا عذر لأحد في ترك الطلب مهما كثرت عليه التكاليف والأعمال ، وليجعل لنفسه ولو ساعة واحدة من اليوم ، ولكن المهم أن يحافظ عليها مهما حدث ، والمداومة فيها بركة عظيمة ، وكنت أضرب لبعض إخواني مثلا ، فأقول لو أن شخصا حفظ آية واحدة من كتاب الله عز وجل ، فإنه ما تمر عليه سنة إلا وقد حفظ (٣٦٥) آية ، يعني أنه يكمل القرآن في نحو أربع أو خمس سنوات ، فالمهم هو المداومة ، وعدم الانشغال الكامل ، ومجاهدة النفس في الطلب .

وفي السير (١١ / ١٩٢): قال الخلال: حدثنا الرمادي سمعت عبد الرزاق وذكر أحمد ، فدمعت عيناه ، فقال: بلغني أن نفقته نفدت ، فأخذت بيده ، فأقمته خلف الباب ، وما معنا أحد ، فقلت له: إنه لا تجتمع عندنا الدنانير ، إذا بعنا الغلة أشغلناها في شيء ، وقد وجدت عند النساء عشرة دنانير فخذها ، وأرجو أن لا تنفقها حتى يتهيأ شيء ، فقال لي: يا أبا بكر لو قبلت من أحد شيئا قبلت منك . وقال عبد الله: قلت لأبي: بلغني أن عبد الرزاق عرض عليك دنانير؟ قال: نعم ، وأعطاني يزيد بن هارون خمسمائة درهم ، أظن فلم أقبل وأعطى يحيى بن معين ، وأبا مسلم ، فأخذا منه .

وفي السير أيضا (١١/ ٢٠٦): قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان قال:

بلغني أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز باليمن ، وأكرى نفسه من جمالين عند خروجه ،وعرض عليه عبد الرزاق دراهم صالحة فلم يقبلها .

وفي السير أيضا (١١/ ٣٢٠): أحمد بن محمد بن عبد الخالق حدثنا المروذي: قال أبو عبد الله: خرجت إلى الثغر على قدمي ، فالتقطت ، لو قد رأيت قوما يفسدون مزارع الناس ، قال: وكنا نخرج إلى اللقاط[1] .

قال الذهبي: وربما نسخ بأجرة ، وربما عمل التِّكك ، وأجر نفسه لجمّال .

وفي السير أيضا (١٦/ ٣٤): قال أبو عمر بن حيّويه: أدخلني دعلج بن أحمد داره ، وأراني بداراً من المال معبأة ، فقال لي: خذ منها ما شئت ، فشكرته ، وقلت: أنا في كفاية .

وفي السير أيضا (١٨/٢٦٣): قال السمعاني: قرأت بخط هبة الله السقطي أن ابن الدجاجي كان ذا وجاهة وتقدم وحال واسعة ، وعهدي به وقد أخنى عليه الزمان ، وقصدته في جماعة مثرين لنسمع منه وهو مريض ، فدخلنا وهو على بارية[2]، وعليه جبة قد حرقت النار فيها ، وليس عنده ما يساوى درهماً ، فحمل على نفسه حتى قرأنا عليه بحسب شره أهل الحديث ، فلما خرجنا قلت: هل معكم ما نصرفه إلى الشيخ؟ فاجتمع له نحو خمسة مثاقيل ، فدعوت بنته ، وأعطيتها ، ووقفت لأرى تسليمها له ، فلما أعطته لطم حُرَّ وجهه ، ونادى: وافضيحتاه: آخذ على حديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عوضا؟ لا والله .

ونهض حافيا إليّ ، وبكى ، فأعدت الذهب إليهم فتصدقوا به[3] . ا هـ .

وفي الحلية (٤/ ٨٧) عن ميمون بن مهران: لو أن كل إنسان منا تعاهد كسبه ، ولم يكسب إلا طيبا ،ثم أخرج ما عليه ما احْتِيج إلى الأغنياء ، ولا احتاج الفقراء .

---

(١) اللقاط: السنبل الذي تخطئه المناجل ، ويلتقطه الناس .

(٢) البارية: الحصيرة .

(٣) وأقول: أين هذا ممن اتخذوا الحديث تجارة؟ ، وليتهم قنعوا ، بل راحوا يأخذون عمل غيرهم ويتاجرون به ، في أحوال من التردي لا تحيط بها العبارة ، نسأل الله المسامحة .

وفي الحلية (٧/ ٥٩): عن الثوري قال: ما وضع رجل يده في قصعة رجل إلا ذل له .

وقد كان سلفنا رحمهم الله يجمعون بين الدين وتحصيل المعيشة ، وبين الآخرة والدنيا ، ففي الحلية (١/ ٣٣٤): عن عمر بن قيس قال: كان لابن الزبير مائة غلام ، يتكلم كل غلام منهم بلغة أخرى ، فكان ابن الزبير يكلم كل واحد منهم بلغته ، فكنت إذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت: هذا رجل لم يرد الله طرفة عين ، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت: هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين . اهـ .

وفي الحلية (٢/ ١٧٣): عن سعيد بن المسيب أنه مات وترك ألفين أو ثلاثة آلاف دينار . وقال: ما تركتها إلا لأصون بها ديني وحسبي ، وقال أيضا: من استغنى بالله افتقر الناس إليه .

وفي الحلية (٣/ ١١): عن حماد بن زيد قال: قال لي أيوب: الزم سوقك ، فإنك لا تزال كريما على إخوانك ما لم تحتج إليهم .

وفي (٣/ ٢٠): عن الحسن قال: لا تزال كريما على الناس أو لا يزال الناس يكرمونك ما لم تعاط ما في أيديهم ، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك ، وكرهوا حديثك ، وأبغضوك .

وفي الحلية (٥/ ٤٧): عن عيسى بن يونس قال: ما رأينا في زماننا مثل الأعمش ، ولا الطبقة الذين كانوا قبلنا ، ما رأينا الأغنياء والسلاطين في مجلس قط أحقر منهم في مجلس الأعمش ، وهو محتاج إلى درهم .

وفي الحلية أيضا (٦/ ٣٦٩): عن سفيان الثوري قال: يعجبني أن يكون صاحب الحديث مكفيا ، فإن الآفات إليهم أسرع ، وألسنة الناس إليهم أسرع .

وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص(٢٨٥):

كان إبراهيم بن أدهم يحصد ، وسلمان الخواص يلقط ، وحذيفة المرعشي يضرب اللبن ، وقال ابن عقيل: التسبب لا يقدح في التوكل ، لأن تعاطي رتبة ترقى

على رتبة الأنبياء نقص في الدين، ولما قيل لموسى عليه السلام ﴿ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ خرج، ولما جاع واحتاج إلى عفة نفسه أجر نفسه ثمان سنين، وقال الله تعالى: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾، وهذا لأن الحركة استعمال بنعمة الله، وهي القوى، فاستعمل ما عندك ثم اطلب ما عنده، وقد يطلب الإنسان من ربه وينسى ماله عنده من الذخائر، فإذا تأخر عنه ما يطلبه يسخط، فترى بعضهم يملك عقارا وأثاثا، فإذا ضاق به القوت، واجتمع عليه دين فقيل له: لو بعت عقارك؟ قال: كيف أفرط في عقاري، وأسقط جاهي عند الناس؟. وإنما يفعل هذه الحماقات العادات[1]، وإنما قعد أقوام عن الكسب استثقالا له، فكانوا بين أمرين قبيحين:

إما تضييع العيال، فتركوا الفرائض أو التزين باسم أنه متوكل، فيحن عليهم المكتسبون، فضيقوا على عيالهم لأجلهم، وأعطوهم.

وهذه الرذيلة لم تدخل قط إلا على دنيء النفس الرذيلة، وإلا فالرجل كل الرجل من لم يضيع جوهره الذي أودعه الله إيثارا للكسل، أو لاسم يتزين به بين الجهال، فإن الله تعالى قد يحرم الإنسان المال، ويرزقه جوهرا يتسبب به إلى تحصيل الدنيا بقبول الناس عليه.

* * * * *

---

(١) كذا بالأصل، لعلها: السفهاء أو نحوها.

استشراف طالب العلم إلى ما في أيدي الناس

إن استشراف المسلم إلى ما في أيدي الناس مرض خطير منشأه ضعف التعلق بالله عز وجل ،والطمع والحرص على ما في أيدي الناس ، ولذلك كان جزاؤه من جنسه ،وهو محق البركة لما حصل من المال به ،فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال:سألت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فأعطاني ، ثم سألته ، فأعطاني ، ثم سألته ، فأعطاني ، ثم قال: **«يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع. اليد العليا خير من اليد السفلى»** .

قال حكيم: فقلت: يا رسول الله ،والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا .فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيما إلى العطاء ، فيأبى أن يقبله منه .ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه ، فأبى أن يقبل منه شيئا ، فقال عمر:إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء ، فيأبى أن يأخذه .فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى توفي[1] .

ولئن كان استشراف المسلم إلى ما في أيدي الناس سيئا . فأسوأ منه استشراف العالم أو طالب العلم ، وأشد منه استشرافه إلى ما في أيدي السلاطين ، فإن ذلك ذل له وإهانة للعلم الذي يحمله ، ففي السير (٢٠/ ٢٠١): ذكر الأديب أبو يحيى اليسع ابن حزم ابن العربي ، فبالغ في تقريظه ، وقال: ولي القضاء فمحن ، وجرى في أعراض الإمارة فلحن ، وأصبح تتحرك بآثاره الألسنة ، ويأتي بما أجراه عليه القدر النوم والسنة . وما أراد إلا خيراً ، نصب السلطان عليه شباكه ، وسكن الأدبار حراكه ، فأبداه للناس صورة تذم ، وسورة تتلى ، لكونه تعلق بأذيال الملك ، ولم يجر مجرى العلماء في مجاهرة السلاطين وحزبهم ، بل داهن .

---

(١) رواه البخاري (١٤٧٢) ، ومسلم (١٠٣٥) ، وغيرهما .

وقد كان عامة علماء السلف لا يقبلون من السلطان شيئا أخذا بالعزيمة، وطلبا للسلامة، وقصصهم في ذلك أكثر من أن تحصر، فمن ذلك: ما في السير (٥/ ٣٦٨): روى كثير بن يحيى عن أبيه قال: قدم سليمان بن عبد الملك المدينة، وعمر بن عبد العزيز عامل عليها، قال: فصلى بالناس بالظهر، ثم فتح باب المقصورة، واستند إلى المحراب، واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سليم، فقال لعمر: من هذا؟ ما رأيت أحسن سمتا منه.

قال: صفوان. قال: يا غلام كيس فيه خمسمائة دينار، فأتاه به، فقال لخادمه: اذهب بها إلى ذلك القائم، فأتى حتى جلس إلى صفوان وهو يصلى، ثم سلم، فأقبل عليه، فقال: ما حاجتك؟ قال: يقول أمير المؤمنين: استعن بهذه على زمانك وعيالك. فقال صفوان: لست الذي أرسلت إليه. قال: ألست صفوان بن سليم؟ قال: بلى. قال: فإليك أرسلت. قال: اذهب، فاستثبت. فولى الغلام، وأخذ صفوان نعليه، وخرج، فلم ير بها حتى خرج سليمان من المدينة. ا هـ.

وعن عبد الله بن محمد الباهلي قال: جاء رجل إلى الثوري، فقال: يا أبا عبد الله تمسك هذه الدنانير؟ فقال: اسكت، لولا هذه الدنانير لتمندل بنا هؤلاء الملوك[1].

وفي السير (٨/ ٣٧٥): قال مصعب الزبيري: كان العمري (يعني عبد الله بن عبد العزيز) أصغر جسيما، لم يكن يقبل من السلطان ولا غيره، ومن ولي من أقاربه ومعارفه لا يكلمه، وولي أخوه عمر المدينة وكرمان فهجره.

قال مصعب: ما أدركت بالمدينة رجلا أهيب منه، وكان يقبل صلة ابن المبارك، وقدم الكوفة ليخوف الرشيد بالله، فرجف لمجيئه الدولة، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف ما زاد من هيبته، فرد من الكوفة، ولم يصل إليه. ا هـ.

ولو أن طالب العلم حمل على ظهره ليعف نفسه لكان أكرم له من تطلعه لما في

---

(١) الحلية لأبي نعيم (٦/ ٣٨١)، والسير (٧/ ٢٤١).

أيدي الناس .

وفي الحلية (٣/ ١١٧): عن رجاء بن أبي سلمة قال: قلت لحسان بن أبي سنان: أما تحدثك نفسك بالفاقة؟ قال: بلى ، قلت: فبأي شيء تردها؟ قال: أقول لها: وكان ذاك تأخذين المسحاة ، فتجلسين مع الفعلة ، فتكسبين دانقا أو دانقين ، تعيشين به ، فتسكن .

وفي تلبيس إبليس ص(١٨٥):ولقد بلغنا أن بعض الصوفية دخل على بعض الأمراء الظلمة ، فوعظه ، فأعطاه شيئا ، فقبله ، فقال الأمير: كلنا صيادون ، وإنما الشباك تختلف .

وقد قبل بعض السلف هدايا السلطان عملا بما رواه عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعطيني العطاء ، فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني ، فقال: «**خذه، إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه، ومالا فلا تتبعه نفسك**»[1] .

هذا مع قيامهم بحق الله في الأمراء من النصح والإرشاد وقول الحق ، وإن كان في الترك والاستغناء السلامة ،وهو ما عليه الآخذون بالعزيمة من السلف ، والله المستعان .

* * * *

(١) رواه البخاري (١٤٧٣) ، ومسلم (١٠٤٥) وغيرهما .

الانشغال بعلم الكلام

قال ابن الجوزي: في تلبيس إبليس ص(٨٢): إن إبليس لما تمكن من الأغبياء، فورطهم في التقليد، وساقهم سوق البهائم، ثم رأى خلقا فيهم نوع ذكاء وفطنة، فاستغنوا هم على قدر تمكنه منهم، فمنهم من قبح عنده الجمود على التقليد وأمره بالنظر، ثم استغوى كلا من هؤلاء بفن، فمنهم من أراه أن الوقوف مع ظواهر الشرائع عجز، فساقهم إلى مذهب الفلاسفة، ولم يزل بهؤلاء حتى أخرجهم عن الإسلام، وقد سبق ذكرهم في الرد على الفلاسفة، ومن هؤلاء من حسن له أن لا يعتقد إلا ما أدركته حواسه، فيقال لهؤلاء: بالحواس علمتم صحة قولكم، فإن قالوا: نعم، كابروا، لأن حواسنا لم تدرك ما قالوا، إذ ما يدرك بالحواس لا يقع فيه خلاف، وإن قالوا بغير الحواس ناقضوا قولهم، ومنهم من نفره إبليس عن التقليد وحسن له الخوض في علم الكلام، والنظر في أوضاع الفلاسفة، ليخرج بزعمه عن غمار العوام، وقد تنوعت أحوال المتكلمين، وأفضى الكلام بأكثرهم إلى الشكوك، وبعضهم إلى الإلحاد، ولم تسكت القدماء من فقهاء هذه الأمة عن الكلام عجزا، ولكنهم رأوا أنه لا يشفي غليلا، ثم يرد الصحيح عليلا، فأمسكوا عنه ونهوا عن الخوض فيه، حتى قال الشافعي رحمه الله: لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام. قال: وإذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد أنه من أهل الكلام ولا دين له، قال: وحكمي في علماء الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام، وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب كلام أبدا، علماء الكلام زنادقة.

قال ابن الجوزي: وكيف لا يذم الكلام، وقد أفضى بالمعتزلة إلى أنهم قالوا: إن الله عز وجل يعلم جمل الأشياء، ولا يعلم تفاصيلها، وقال جهم بن صفوان: علم الله وقدرته وحياته محدثة، وقال أبو محمد النوبختي عن جهم إنه قال: إن الله عز وجل ليس بشيء، وقال أبو علي الجبائي وأبو هاشم ومن تابعهما من البصريين:

المعدوم شيء ، وذات ، ونفس ، وجوهر ، وبيان ، وصفرة ، وحمرة ، وإن الباري سبحانه وتعالى لا يقدر على جعل الذات ذاتا ، ولا العرض عرضا ، ولا الجوهر جوهرا ، وإنما هو قادر على إخراج الذات من العدم إلى الوجود .

وحكى القاضي أبو يعلى في كتاب المقتبس قال: قال لي العلاف المعتزلي: لنعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أمر لا يوصف الله بالقدرة على دفعه ، ولا تصح الرغبة حينئذ إليه ، ولا الرهبة منه ، لأنه لا يقدر إذ ذاك على خير ، ولا شر ، ولا نفع ، ولا ضر .

قال: ويبقى أهل الجنة جمودا سكوتا ، لا يفضون بكلمة ، ولا يتحركون ، ولا يقدرون هم ولا ربهم على فعل شيء من ذلك ، لأن الحوادث كلها لابد لها من آخر تنتهي إليه ، لا يكون بعده شيء ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ثم حكى أقوالا أخرى من هذه الضلالات ، ثم قال: أعوذ بالله من نظر وعلوم أوجبت هذه المذاهب القبيحة ، وقد زعم أرباب الكلام أنه لا يتم الإيمان إلا بمعرفة ما رتبوه ، وهؤلاء على الخطأ ، لأن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمر بالإيمان ، ولم يأمر ببحث المتكلمين ، ودرجت الصحابة الذين شهد لهم الشارع أنهم خير الناس على ذلك ، وقد ورد ذم الكلام على ما قد أشرنا إليه ، وقد نقل إلينا إقلاع منطقي المتكلمين عما كانوا عليه ، لما رأوا من قبح غوائله ، ثم ساق بإسناده عن أحمد بن سنان قال: كان الوليد بن أبان الكرابيسي خالي ، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: تعلمون أحدا أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا ، قال: فتتهموني . قالوا: لا ، قال: فإني أوصيكم ، أتقبلون؟ قالوا: نعم . قال: عليكم بأصحاب الحديث ، فإني رأيت الحق معهم ، وكان أبو المعالي الجويني يقول: لقد جلت أهل الإسلام جولة وعلومهم ، وركبت البحر الأعظم ، وغصت في الذي نهوا عنه ، كل ذلك في طلب الحق ، وهربا من التقليد ، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق: عليكم بدين العجائز ، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره ، فأموت على دين العجائز ، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص فالويل لابن الجويني . وكان يقول لأصحابه: يا

أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به .

وقال أبو الوفاء بن عقيل لبعض أصحابه: أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت، قال: وقد أفضى الكلام بأهله إلى الشكوك، وكثير منهم إلى الإلحاد، تشم روائح الإلحاد من فلتات كلام المتكلمين، وأصل ذلك أنهم ما قنعوا بما قنعت به الشرائع، وطلبوا الحقائق، وليس في قوة العقل إدراك ما عند الله من الحكمة التي انفرد بها، ولا أخرج الباري من علمه لخلقه ما علمه هو من حقائق الأمور .

قال: وقد بالغت في الأول طول عمري، ثم عدت القهقرى إلى مذهب الكتب، وإنما قالوا: إن مذهب العجائز أسلم، لأنهم لما انتهوا إلى غاية التدقيق في النظر لم يشهدوا ما ينفي العقل من التعليلات والتأويلات، فوقفوا مع مراسم الشرع، وجنحوا عن القول بالتعليل، وأذعن العقل بأن فوقه حكمة إلهية، فسلم . انتهى المراد منه .

قلت: ومع ذم السلف رضي الله عنهم الكلام وأهله فإن أقواما ممن ينتسبون إلى العلم يجعلون الكلام علما من العلوم الشرعية، بل ويجعلونه هو التوحيد، ولا يعرفون التوحيد الحقيقي، فأمثال هؤلاء يضيعون الشباب، فينبغي على من ابتلي بدراسة نظامية مفروض فيها علم الكلام أن يدرس ردود أئمة السلف عليهم كابن تيمية وغيره حتى لا ينحرف ويضل عن سواء السبيل، والله الهادي إلى سواء السبيل .

* * * * *

التكلف والتشدق وكثرة الكلام

قال ابن مفلح في الآداب (٢/ ٩٠): عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «**إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه، كما تتخلل البقر**[١] **بلسانها**». إسناده جيد، رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وحسنه[٢].

قال في النهاية: هو الذي يتشدق في الكلام، ويفخم به لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفا، وروى الترمذي عن أحمد بن منيع عن يزيد بن هارون عن أبي غسان محمد بن مطرف عن حسان بن عطية عن أبي أمامة الباهلى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**»، كلهم ثقات، وفي أطراف الحافظ ابن عساكر: حسان لم يسمع من أبي أمامة، قال الترمذي: حسن غريب[٣]، وإنما جعل الحياء، وهو غريزة من الإيمان، وهو اكتساب، لأن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي، فصار كالإيمان الذي يقطع بينها وبينه، وإنما جعله بعضه لأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار ما أمر الله به، وانتهاء عما نهى الله عنه، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان، والعي قلة الكلام، والبذاء الفحش في الكلام.

وروى الترمذي ثنا أحمد بن الحسن بن خراش البغدادي ثنا حسان بن هلال ثنا مبارك بن فضالة حدثني عبد ربه بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**».

---

(١) كذا بالأصل، وعند الترمذي: البقرة، وعند أبي داود: الباقرة، وهي جمع.

(٢) رواه أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣)، وأحمد (٢/ ١٦٥، ١٨٧)، وفي إسناده: عاصم بن سفيان الثقفي روى عنه ثلاثة، ووثقه ابن حبان، وقال الحافظ: صدوق، وحسنه شيخنا الألباني في الصحيحة (٨٨٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٢٧)، وقال المزي في تحفة الأشراف: إن حسان بن عطية لم يسمع من أبي أمامة كما قال ابن عساكر، والله أعلم.

قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين، فما المتفيهقون؟

قال: **المتكبرون** .

مبارك ثقة، تكلم فيه جماعة من جهة التدليس، وقد زال، قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، ورواه بعضهم عن مبارك عن محمد بن المنكدر عن جابر، ولم يذكر عبد ربه، وهذا أصح[١] .

قال في النهاية: الثرثار الذي يكثر الكلام تكلفا وخروجا عن الحق، والثرثرة كثرة الكلام وترديده، والمتشدق: المتوسع في الكلام من غير احتياط واحتراز، وقيل: المستهزئ بالناس يلوي شدقه بهم وعليهم، قال: والمتفيهق: الذي يتوسع في الكلام، ويفتح فاه به، مأخوذ من الفهق، وهو الامتلاء والاتساع، يقال: أفهقت الإناء، ففهق يفهق فهقاً .

ثم روى أبو داود في هذا الباب، وهو (**باب ما جاء في المتشدق في الكلام**): ثنا ابن السرح أنبأنا ابن وهب عن عبد الله بن المسيب عن الضحاك بن شرحبيل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا**»[٢] عبد الله بن المسيب تفرد عنه ابن وهب، ووثقه ابن حبان[٣]، وصرف الحديث ما يتكلفه الإنسان من الزيادة فيه على قدر الحاجة، وإنما كره لما يدخله من الرياء والتصنع، ولما يخالطه من الكذب والتزيد، يقال: فلان لا يحسن صرف الكلام أي فضل بعضه على بعض، وهو من صرف الدراهم وتفاضلها، ذكره في النهاية .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٧)، وإسناده حسن، كما قال الترمذي رحمه الله، ووافقه ابن مفلح، ووافقهما شيخنا الألباني رحمه الله كما في الصحيحة (٧٩١) .

(٢) رواه أبو داود (٥٠٠٦) .

(٣) قال ابن يونس: كان فقيها مقبولا عند القضاة، وروى عنه ابن وهب ويحيى بن بكير، وقال الحافظ في التقريب: مقبول، والضحاك بن شرحبيل قال الحافظ في التهذيب: قال الحافظ أبو محمد المنذري: يشبه أن تكون رواية الضحاك عن الصحابة مرسلة، لأن البخاري وابن يونس لم يذكرا له رواية عن الصحابة . انتهى . قال الحافظ: وكذا أبو حاتم ويعقوب بن سفيان لم يذكرا له رواية عن صحابي . فالحديث ليس مما تقوم به الحجة، والله أعلم .

والصرف: التوبة، وقيل: النافلة، والعدل: الفدية، وقيل: الفريضة، وتكررت هاتان اللفظتان في الحديث، وروى أيضا: ثنا سليمان بن عبد الحميد أنه قرأ في أصل إسماعيل بن عياش، وحدث محمد بن إسماعيل ابنه قال حدثني أبي حدثني ضمضم عن شريح بن عبيد حدثنا أبو ظبية أن عمرو بن العاص قال يوما، وقال رجل، فأكثر القول، فقال عمرو: لو قصد في قوله لكان خيرا له، سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «**أمرت أن أتجوز في القول، فإن الجواز هو خير**». محمد بن إسماعيل ليس بذاك، وضمضم مختلف فيه[1]، وعن معاوية ﷺ قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذين يشققون الكلام تشقيق الشعر، رواه أحمد[2].

وعن ابن عمر قال: قدم رجلان من المشرق في زمان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال: «**إن من البيان لسحراً أو إن من بعض البيان لسحرا**»، رواه أحمد والبخاري وأبو داود وغيرهم[3].

قال في النهاية: أي منه ما يصرف قلوب السامعين، وإن كان غير حق، وقيل معناه: إن من البيان ما يكتسب به من الإثم ما يكتسبه الساحر بسحره، فيكون في معرض الذم، ويجوز أن يكون في معرض المدح، لأنه تستمال به القلوب، ويترضى به الساخط، ويستنزل به الصعب، والسحر في كلامهم صرف الشيء عن وجهه، وقال ابن عبد البر: تأولته طائفة على الذم لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح، لأن الله عز وجل مدح البيان، وأضافه

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٨)، فأما ضمضم فحسن الحديث، لكن علته محمد بن إسماعيل فإن أبا حاتم قال: إنه لم يسمع من أبيه شيئا، وقال أبو داود: ليس بذاك، وذمه عمرو بن عثمان، ولم أر من وثقه، فالحديث ضعيف، والله أعلم.

(٢) رواه أحمد (٤/ ٩٨): ثنا وكيع ثنا سفيان عن جابر عن عمرو بن يحيى عن معاوية به، وجابر هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، وعمرو بن يحيى إن كان هو المازني فلم يذكروه في الرواة عن معاوية رضي الله عنه، ولا فيمن روى عنه جابر ابن يزيد، فالله أعلم، وعلى أي حال فالحديث ضعيف لأجل الجعفي.

(٣) رواه البخاري (٥١٤٦)، (٥٧٦٧)، ومالك في الموطأ ص(٧٥٢ - ٧٥٣)، وأبو داود (٥٠٠٧)، والترمذي (٢٠٢٨)، وأحمد (٢/ ١٦، ٥٩، ٦٢)، ورواه أحمد (٢/ ٩٤)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٨٧٥) بزيادة في الحديث: يا أيها الناس، قولوا بقولكم، فإنما تشقيق الكلام من الشيطان.

إلى القرآن قال:وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة ، فأحسن المسألة ، فأعجبه قوله: فقال: هذا - والله - السحر الحلال . انتهى .

قلت:والذي يظهر أنه إذا كان على سبيل التكلف فإنه يكون مذموما ، فقد قال الله عز وجل عن نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ ، وقد سبق في الأحاديث كراهة التشدق بالكلام ، والثرثرة ، وهي تكلف الكلام دون فائدة ، وقال أنس رضي الله عنه: خطب رجل عند عمر ، فأكثر الكلام ، فقال عمر: إن كثرة الكلام في الخطب من شقاشق الشيطان(١) .

وهذا الداء موجود في كثير من طلبة العلم وهو تكلف الكلام وإطالته دون حاجة ،وبعضهم يتكلم بالكلام بملء فيه تقعرا وتشدقا ليصرف وجوه الناس إليه ، وقد مضى ما فيه ، فنسأل الله السلامة .

وفي السير (٨/ ٤٣٤): قال الفضيل: أشد الورع في اللسان .

فقال الذهبي: هكذا هو ،فقد ترى الرجل ورعا في مأكله وملبسه ومعاملته وإذا تحدث يدخل عليه الداخل من حديثه ،فإما أن يتحرى الصدق فلا يكمل الصدق ، وإما أن يصدق فينمق حديثه ليمدح على الفصاحة ، وإما أن يظهر أحسن ما عنده ليعظم ،وإما أن يسكت في موضع الكلام ليثنى عليه ، ودواء ذلك كله الانقطاع عن الناس إلا من الجماعة . ا هـ . (٢) .

وفي الحلية (٧/ ٦٣): عن خلف بن اسماعيل قال: قلت لسفيان الثوري: إذا أخذت في الحديث نشطت ، وأنكرتك ،وإذا كنت في غير الحديث كأنك ميت؟ قال: سفيان: أما علمت أن الكلام فتنة؟ .

* * * * *

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٧٦) ، وإسناده صحيح .

(٢) قلت: رحم الله الذهبي ، فإنه إذا كان يقول هذا عن وقته فماذا عسى أن نقول في زماننا؟ نسأل الله المسامحة ، لكن لا ينبغي أن يمنعه الورع وخوف الرياء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله عز وجل ، والله يعصمنا وإخواننا المسلمين .

غفلة كثير من طلاب العلم
عن أثر صدور الزلل منهم على العامة

روى مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**» [١] .

وروى مسلم أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**من دعا إلى هدى كان لـه من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا**» [٢] . والدعوة تكون بالفعل كما تكون بالقول ، فالناس إذا أحسنوا الظن بشخص قلدوه ، واقتدوا بأقواله وأفعاله ، خاصة في زماننا الذي قل فيه العلم والتقوى ، وكثر فيه الجهل وضعف الدين ، ولذلك فإن الناس إذا رأوا طالب علم قد اتصف ببعض الاستقامة عدوه من مشائخ الإسلام ، واتبعوا أقواله وأفعاله ، بل جعلوها حجة على العالمين ، لذلك فينبغي على طالب العلم أن يقدر المسؤولية التي على عاتقه ، فيراقب الله عز وجل ، ويستقيم على أمر الله عز وجل في أقواله وأفعاله ، وقد كان سلفنا من أهل العلم يقدرون هذه المسؤولية ، فقد روى البيهقي بإسناده عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى على طلحة بن عبيد الله ثوبا مصبوغا ، فقال: ما بال هذا الثوب المصبوغ عليك؟ فقال طلحة: ليس به بأس ، إنما هو مدر .

فقال عمر: إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم الناس ، وإن جاهلا لو رأى هذا الثوب لقال: طلحة كان يلبس الثياب المصبوغة ، فلا يلبس أحد منكم أيها الرهط من هذه الثياب المصبوغة شيئا وهو محرم .

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧) ، وغيره .
(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤) ، وغيره .

وعن الأوزاعي قال: كنا نضحك ونمزح، فلما صرنا يقتدى بنا خشيت أن لا يسعنا التبسم.

وعن سفيان بن عيينة قال: لو صلح القراء لصلح الناس.

وقال أيضا: لو أن هؤلاء الذين يطلبون العلم طلبوا به ما عند الله عز وجل لهابهم الناس بفضل علمهم، ولكن طلبوا به الدنيا، فهانوا على الناس[1].

قلت: وقد رأينا كثيرا من الطلاب لا يعرفون لله عليهم حقا، ولا يبالون بمن يغتر بهم، فيقلدهم في سوء أقوالهم وأخلاقهم وأفعالهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٤٨٦): قال: ينبغي للعالم التوسط في كل شؤونه للتأسي به، ثم قال: قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته، وليكن إلى التقلل أميل، فإن الناس ينظرون إليه، وينبغي له الاحتراز مما يقتدى به فيه، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام، فاقتدى به غيره كان الإثم عليه، وربما سلم هو في دخوله، فلم يفقهوا كيفية سلامته.

وفي الحلية (٣/ ١٣٠): عن عبيد الله بن شميط بن العجلان قال سمعت أبي يقول: يعمد أحدهم، فيقرأ القرآن، ويطلب العلم حتى إذا علمه أخذ الدنيا، فضمها إلى صدره، وحملها على رأسه.

فنظر إليه ثلاثة ضعفاء: امرأة ضعيفة، وأعرابي جاهل، وأعجمي، فقالوا: هذا أعلم بالله منا لو لم ير في الدنيا ذخيرة ما فعل هذا، فرغبوا في الدنيا وجمعوها: وكان أبي يقول: فمثله كمثل الذي قال الله عز وجل: ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

* * * * *

---

(١) روى هذه الآثار البيهقي في المدخل رقم (٥٤٦)، (٥٤٧)، (٥٤٨) بأسانيد صحيحة.

الشح بالعلم

روى مسلم في صحيحه عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**الدين النصيحة**» . قلنا: لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» [١] .

وقال عبد الله بن المبارك: من بخل بالعلم ابتلي بثلاث، إما موت، فيذهب علمه، وإما ينسى، وإما يصحب، فيذهب علمه[٢] .

وقال مالك رحمه الله: من بركة العلم إفادة بعضهم بعضا[٣] .

وعن سفيان بن عيينة قال: قال عيسى عليه السلام: إن للحكمة أهلا، فإن وضعتها في غير أهلها ضيعت، وإن منعتها من أهلها ضيعت، كن كالطبيب يضع الدواء حيث ينبغي[٤] .

وفي المدخل للبيهقي (٥٨٥) عن داود بن الحسين البيهقي قال: كنت مع إسحاق بن إبراهيم في قريته مع أصحاب الحديث، فلما فرغوا من عملهم ذهبنا إليهم، فجعل يقرأ لكل واحد منا شيئا، ثم ناولته كتابي، فقال لي: انسخ من كتابهم ما قد قرأت، قلت: إنهم لا يمكنونني. قال: إذا والله لا يفلحون، قد رأينا أقواما منعوا هذا السماع، فوالله ما أفلحوا ولا نجحوا.

وكتمان العلم مما ابتلي به بعض مرضى القلوب من طلبة العلم في زماننا، فإن أحدهم يخشى أن يفتح لغيره أبواب العلم حتى لا يساويه فيه، نسأل الله السلامة والعافية.

ويجري هذا الأمر بين الشيخ والطالب، وبين الطالب وقرينه وسيأتي في الباب الآتي زيادة بيان لموقف المعلم من الطالب إن شاء الله تعالى.

* * * * *

---

(١) صحيح مسلم (٥٥) وغيره.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٦٥)، وقوله (يصحب) أي السلطان كما في المدخل للبيهقي (٥٨٦).

(٣) الكامل لابن عدي (١/ ٩١)، والبيهقي في المدخل (٥٨٨)، ورواه أبو نعيم (٨/ ١٦٦)، والخطيب في الجامع (١٤٥٢) عن ابن المبارك بنحوه.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٣)، والبيهقي في المدخل (٥٨٧) عن سفيان، ولم يذكر عيسى عليه السلام.

عدم إخلاص بعض المعلمين للطلبة

إن من أعظم الآفات التي تصيب بعض المنتسبين للعلم هي عدم الإخلاص للطلبة ،وهو دليل على ضعف اليقين ورقة الدين ، ففي الصحيحين من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه على آله وسلم قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[(١)] .

وقد كان سلفنا الصالح يحب أحدهم طالب العلم كما يحب بنيه ، بل ربما يكون أكثر ، ففي السير (٥/ ٣٦٣):

قال جعفر بن سليمان حدثنا مالك بن دينار قال: أتينا أنساً أنا وثابت ويزيد الرقاشي ، فنظر إلينا ، فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ،لأنتم أحب إلى من عدة ولدي إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم ، إني لأدعو لكم في الأسحار .

وأما في عصرنا فقد وجدنا ممن ينسب لعلم من لا يفسح للطلبة المجال لكي يرتفع شأنهم ، ويعمل على بقائهم تحت يده ، ولا يسره نبوغهم حتى لا يسبقوه في العلم[(٢)]، فمثل هذا الصنف لا ينبغي أن يحشر بين أهل العلم ، فإنه غاش للأمة مضلل للعامة ، فأبعدهم الله .

ومع ذلك ففي عصرنا أيضا من وجدناه ضرب أعلى الأمثلة في الإخلاص للطلبة كشيخنا مقبل رحمه الله ،فقد كنت أجده منشغلا بأبحاثه غاية الانشغال ، فيعرض لي إشكال ، فأعرضه عليه ، فيترك ما في يده ، ويقبل على مسألتي نبحثها سويا ، وربما ضاع من وقته أكثر من ساعة ، ومع ذلك فلا يضجر ، إذا وجد الطالب جادا في طلب العلم ، وقد كان يقول لنا: أنا أريد منكم أن تسبقوني ، فرحمه الله رحمة واسعة .

* * * * *

---

(١) رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) ، وغيرهما .

(٢) وهذا دال على فساد نيته وعدم قصده بالعلم وجه الله ، فإن الذي يريد من تحصيل العلم وجه الله يفرح كلما كثر الطلاب ، وزاد علمهم ، لأن ذلك يصب في مجرى واحد ، وهو نشر العلم ورفع راية السنة والدين ، وبالتالي يزول الجهل ويهتدي المسلمون للطريق المستقيم وتقوى شوكتهم بالعلم النافع والعمل الصالح ، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا وإخواننا من طلاب العلم من خدام سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

استئثار كل معلم بطلبته

إن من أعظم الأمراض التي تعرض للنفس البشرية هي الأثرة وحب النفس، فعن أنس رضي الله عنه عن أسيد بن حضير رضي الله عنه أن رجلا من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعملني كما استعملت فلانا؟ قال: «**ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[١].

فإذا كانت الأثرة وحب تمييز النفس على غيرها سيئة في أمور الدنيا، فإنها في أمور الآخرة أسوأ.

وإذا وقع ذلك من العالم أو المعلم كان أشد سوءاً، لكونه ممن يقتدى به ويتأثر به الكثيرون، ومن هذه الأثرة أن يكره المعلم من طلبته أن يحضروا دروس غيره، وهذا دليل على عدم إخلاصه وعدم ابتغائه بعمله وجه الله، قال الإمام النووي رحمه الله في كتابه القيم التبيان في آداب حملة القرآن ص(٣٣): وليحذر كل الحذر من قصده[٢] التكبر بكثرة المشتغلين عليه، والمختلفين إليه. وليحذر من كراهته قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به، وهذه مصيبة يبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين، وهي دلالة بينة من صاحبها على سوء نيته، وفساد طويته، بل هي حجة قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله الكريم، فإنه لو أراد الله بتعليمه لما كره ذلك، بل قال لنفسه: أنا أردت الطاعة بتعليمه، وقد حصلت، وهو قصد بقراءته على غيري زيادة علم، فلا عتب عليه.

وقد روينا في مسند الإمام المجمع على حفظه وإمامته أبي محمد الدارمي رحمه الله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم، لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقا يباهي بعضهم بعضا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره، ويدعه،

(١) رواه البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٨٤٥) وغيرهما.

(٢) يعني: المعلم.

أولئك لا تصعد أعمالهم من مجالسهم تلك إلى الله تعالى[١].

وقد صح عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال: وددت أن هذا الخلق تعلموا هذا العلم - يعني علمه وكتبه - على أن لا ينسب إلي منه حرف. اهـ.

وقد كان الشيخ من السلف الصالح يوجه طالب العلم إلى من يستفيد منه إذا أراد الرحلة في طلب العلم، وهذا دليل على محبتهم الخير لطلاب العلم، وإخلاصهم وصدقهم مع الله عز وجل، ففي السير (١٨/ ٢٧٥):

قال الخطيب: استشرت البرقاني في الرحلة إلى أبي محمد بن النحاس بمصر أو إلى نيسابور إلى أصحاب الأصم، فقال: إنك إن خرجت إلى مصر إنما تخرج إلى واحد إن فاتك ضاعت رحلتك، وإن خرجت إلى نيسابور ففيها جماعة إن فاتك واحد أدركت من بقي، فخرجت إلى نيسابور. اهـ.

وفي الحلية (٣/ ٣٦٦): عن الزهري قال: جلست إلى ثعلبة بن أبي صعير فقال: أراك تحب العلم، فقلت: نعم. قال: عليك بذلك الشيخ - يعني سعيد بن الميسب - قال: فلزمت سعيد بن المسيب سبع سنين، وتحولت من عنده إلى عروة ففجرت عن ثبج بحر.

فهذه سنة سلفنا رحمهم الله، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فأسأل الله عز وجل أن يصلح نفوسنا وقلوبنا وإخواننا من طلبة العلم، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

* * * * *

(١) رواه الدارمي (٣٨٢)، وإسناده ضعيف جدا، ولكن معناه في غاية الحسن.

تعصب الطالب لشيخه وانحرافه عن غيره

إن إجلال الطالب لشيخه واحترامه له لمن كمال خلق الطالب وحسن أدبه ، وهو داخل في قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»(١). وغير ذلك من الأدلة ، ومع ذلك فهناك فرق واضح بين إجلال الشيخ واحترامه وتبجيله وبين التعصب لآرائه وأقواله وعدم التفات الطالب لغير شيخه ، فمثل هذا الطالب قد حرم نفسه الخير الذي عند غير شيخه مع اتصافه بالجور وعدم الإنصاف ، وكثير من هؤلاء قد ألغوا عقولهم ، وأصبحوا مع شيخهم كالبهيمة التي يقودها صاحبها ، فإن قال شيخه:لا تسمع لفلان امتثل أمره ، وظن أنه سيقع في الضلال والانحراف بمجرد المخالفة مع أن الشيخ ليس بمعصوم ،ولن يغني عنه شيئًا إن أضاع شيئًا من الحق بمتابعة شيخه ، فالله عز وجل يقول: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ﴾ .

وفي السير (٢٠/ ٢٠٢): قال الذهبي: لم أنقم على القاضي (يعني ابن العربى) رحمه الله إلا إقذاعه في ذم ابن حزم واستجهاله له ،وابن حزم أوسع دائرة من أبي بكر في العلوم وأحفظ بكثير ، وقد أصاب في أشياء ، وأجاد ، وزلق في مضايق كغيره من الأئمة ، والإنصاف عزيز . ا هـ .

وفي الحلية (٣/ ٩): عن حماد بن زيد قال: قال لنا أيوب: إنك لا تبصر خطأ معلمك حتى تجالس غيره ، جالس الناس . ا هـ .

وفي الحلية (٤/ ٨٥): قال ميمون بن مهران: العلماء هم ضالتي في كل بلدة ، وهم بغيتي ، ووجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء .

وعن مطر الوراق قال:مثل الذي يروى عن عالم واحد مثل الذي له امرأة واحدة إذا حاضت بقي .

وعن أيوب السختياني قال: الذي له في الفقه معلم واحد كالرجل له امرأة واحدة . روى ذلك ابن عبد البر في الجامع (١/ ٥٢٣ - ٥٢٤) .

* * * * *

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٤) ، وأبو داود (٤٨١١) ، وغيرهما ، وقال الترمذي: حسن صحيح ، وهو صحيح الإسناد . وفي نسخة عزت الدعاس سقط ذكر الراوى عن أبي هريرة ، وهو محمد بن زياد .

كثرة جدال الطالب لمشايخه

إن المناقشة التي يكون الهدف من ورائها إظهار الحق وبيانه لتعد من وسائل تحصيل العلم النافع ونشره بين الناس ،فقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يسألونه ، ويستفهمونه ما يشكل عليهم مما يسمعونه منه من كلام الله أو كلامه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ ، قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أينا لم يظلم؟ فأنزل الله: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾[1] . ولفظ مسلم: لما نزلت: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**» .

إلى غير ذلك مما لا يحتمل المقام التوسع في ذكره ، وهكذا كان التابعون مع أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهو دأب كل طالب علم حريص ، يسأل العالم والشيخ ليستفيد من علمه ، ويستدر ما عنده من كنوز ، وأما إذا أكثر طالب العلم المخالفة للشيخ حتى يضجره أو كان من دأبه جداله لشيخه ، فإن ذلك يضيع عليه خيرا كثيرا ، بحرمانه علم ذلك الشيخ .

قال الزهري رحمه الله كما في السير (٤/ ٢٨٩): أربعة من قريش وجدتهم بحوراً: عروة ، وابن المسيب ، وأبو سلمة ، وعبيد الله بن عبد الله . قال: وكان أبو سلمة كثيراً ما يخالف ابن عباس ، فحرم لذلك منه علما كثيراً .

وفي السير أيضا: روى الزهري عن أبي سلمة قال: لو رفقت بابن عباس لاستخرجت منه علما كثيرا .

---

(١) رواه البخاري (٣٢) ، ومسلم (١٢٤) وغيرهما .

وفي الحلية (٤/ ٨٢): عن ميمون بن مهران قال: لا تمارين عالماً ولا جاهلاً، فإنك إن ماريت عالماً خزن عنك علمه، وإن ماريت جاهلاً خشن بصدرك.

وقد انتشر وشاع بين المنتسبين إلى الطلب كثرة أسئلتهم لأهل العلم لإظهار أنفسهم لا للانتفاع، وأحيانا لتعجيز المتحدث وإظهار نقصه، وهذا من أعظم أسباب حرمان الطالب، نسأل الله العافية، فينبغي على الناصح لنفسه من المسلمين عامة ومن طلاب العلم على وجه الخصوص أن يحرص على الانتفاع من أهل العلم، ولا يشغل نفسه بعيوبهم فيحرم خيرا كثيرا، فإنه لا يسلم من العيوب أحد إلا المعصوم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومن حرص على الانتفاع فسينفعه الله عز وجل، ولكن عليه أن يقدم الأعلم والأتقى، فالأتقى، حتى تتم فائدته، وبالله التوفيق.

* * * * *

الأنفة من نسبة الفضل لأهله

إن بعض طلاب العلم والمنتسبين له يستنكف أن يذكر أحداً بالفضل، وكأنه يرى أنه استحوذ عليه كله، فإن اعترف لأحد بفضل أو منزلة كأنه يرى أنها تؤخذ منه، وعليه فيرى ذلك انتقاصا من قدره، فلا يكاد يذكر أحدا بفضل، خاصة مع معاصريه، ومثل هذا لن يفلح، فما هكذا كان حال سلفنا رحمهم الله.

ففي السير (٣/ ٢٨٥): حماد بن زيد حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري عن عبيد ابن حنين عن الحسين قال: صعدت المنبر إلى عمر، فقلت: انزل عن منبر أبي، واذهب إلى منبر أبيك، فقال: إن أبي لم يكن له منبر، فأقعدني معه، فلما نزل، قال: أي بني من علمك هذا؟

قلت: ما علمنيه أحد.

قال: أي بني، وهل أنبت على رؤوسنا الشعر إلا الله، ثم أنتم، ووضع يده على رأسه، وقال: أي بني، لو جعلت تأتينا وتغشانا[1].

وفي صحيح ابن خزيمة (١/ ٤٢): قال سمعت يونس يقول: سئل ابن عيينة عن معنى قوله: ومن استجمر فليوتر. قال: فسكت ابن عيينة، فقيل له: أترضى بما قال مالك؟ قال: وما قال مالك؟ قيل: قال مالك: الاستجمار: الاستطابة بالأحجار.

فقال ابن عيينة: إنما مثلي ومثل مالك كما قال الأول:

وابن اللبون إذا مالز في قرن ::: لم يستطع صولة البزل القناعيس

* * * * *

(١) رواه الخطيب في تاريخه (١/ ١٤١)، وصححه الذهبي، وصححه ابن حجر في الإصابة (٢/ ١٥).

عدم الإذعان للحق والانقياد لـه كبراً

إن الإذعـان لـلحق إذا تـبين يجـب أن يكـون صـفة كل مسلم ، فقد قال الله عز وجـل: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ وفـيما بايع عليه الصحابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**وأن نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم**» [١] .

فإذا كان المسلم على خطأ ثم بين لـه غيره الصواب فعليه ترك الخطإ والاعتراف بـه اعترافـا صـريحا لا لـبس فيه ولا غموض ، ثم يرجع إلى الصواب . وإذا كان هذا واجـبا عـلى عامـة المسـلمين ، فيـتأكد وجوبـه عـلى العلماء وطلاب العلم لأمرين مهمين:

الأمـر الأول: لكـون العـالم يحمل العـلم ويعـرف من حق الله عليه ما لا يعرفه الجـاهل ،ويظهر هذا الفرق من اختلاف موقف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسـلم من الخطإ إذا صدر من صحابي معروف وموقفه إذا صدر خطأ من أعرابي لا يعرف كثيرا من أحكام الشريعة ، فمثال الأول غضب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسـلم عـلى معـاذ حـين صـلى بأصحابه ، فأطال بهم حتى خرج رجل من الصلاة فقـال الـنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ «**يا معاذ أفتان أنت؟**» [٢] ولهذا نظائر كثيرة .

ومـثال الـثاني:ما ذكره معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه حيث قال: بينا أنـا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ عطس رجل من القوم ، فقلت: يرحمك الله ، فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت: واثكل أمياه ما شانكم تنظرون إلـيّ؟ فجعلـوا يضـربون بـأيديهم عـلى أفخـاذهم . فـلما رأيـتهم يصمتونني ، لكني سـكت .فـلما صـلى رسـول الله صـلى الله عليه وعلى آله وسلم . فبأبي وأمي ، ما رأيـت معـلما قـبله ولا بعده أحسن تعليما منه . فوالله ما كهرني ، ولا ضربني ، ولا

---

(١) رواه البخاري (٧٢٠٠) ، ومسلم (١٧٠٩) وغيرهما .

(٢) رواه البخاري (٧٠٥) ، ومسلم (٤٦٥) وغيرهما .

شتمني، قال: «**إن هـذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[1] . ولهذا أيضا نظائر كثيرة .

وفي هذا وذاك نجد أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد فرق بين الصحابى الذي له طول صحبة وبين الذي لم تتعد صحبته للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقاء أو لقاءين أو نحو ذلك .

فبهذا يظهر الفرق في المؤاخذة بين وقوع مخالفة من طالب علم وبين وقوعها من مسلم عامى، والله المستعان .

الأمر الثاني: هو أن العالم أو طالب العلم يقتدى به، فلذا ينبغي أن يكون إذعانه للحق واضحا لا غموض فيه، فيقول أنا كنت أقول كذا وكذا، وأنا كنت مخطئا في ذلك، والصواب كذا وكذا، ولا يحاول تبرير موقفه وتحسين صورته بكلام عائم غير منضبط ولا واضح كقول بعضهم: المسألة فيها خلاف، تراجع المسألة، ونحو ذلك من الأقوال التي يكون المقصود منها الهروب، ولم يكن هذا مسلك سلفنا الصالح رحمهم الله فمن سيرتهم ما في السير (٣/ ٢٨٥ - ٢٨٦): يونس بن أبي إسحاق عن العيزار بن حريث قال: بينا عمرو بن العاص في ظل الكعبة إذ رأى الحسين، فقال: هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء اليوم، فقال: أبو إسحاق: بلغنى أن رجلاً جاء إلى عمرو، فقال: عليّ رقبة من ولد إسماعيل .

قال الذهبي: ما فهمته .

وفي السير أيضا (٨/ ٤٣٩): قال أحمد بن أبي الحواري قال حدثنا أبو عبد الله الأنطاكي قال: اجتمع الفضيل والثوري فتذاكرا، فرق سفيان، وبكى، ثم قال: أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة، فقال له الفضيل: لكني يا أبا عبد الله أخاف ألا يكون أضر علينا منه، ألست تخلصت إلى أحسن حديثك، وتخلصت أنا إلى أحسن حديثي، فتزينت لي

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧) وغيره .

وتزينت لك؟ فبكى سفيان، وقال: أحييتنى أحياك الله.

وفي السير أيضا (١٨/ ٤٧٤): قال محمد بن طاهر: حضر المحدث أبو جعفر الهمذانى مجلس وعظ أبي المعالي، فقال: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه.

فقال أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها، ما قال عارف قط: يا ألله إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا أو قال: فهل عندك دواء لدفع هذه الضرورة التي نجدها؟

فقال: يا حبيبي، ما ثم إلا الحيرة، ولطم على رأسه، ونزل، وبقي وقت عجيب، وقال فيما بعد: حيرني الهمذاني. اهـ.

وفي الحلية (٩/ ١١٧): عن الشافعي قال: ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته، واعتقدت مودته، ولا كابرني أحد على الحق، ودفع الحجة الصحيحة إلا سقط من عيني، ورفضته.

وفي تهذيب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للقاسمي ص(٣٠٩): من سمع الحق من عبد من عباد الله واستنكف عن قبوله وتشمر لجحده فما ذاك إلا للترفع والتعاظم واستحقار غيره حتى تأبىّ أن ينقاد له، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى، فقال: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾، فكل من يتضح له الحق على لسان أحد ويأنف من قبوله أو يناظر للغلبة والإفحام، لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق، وكذلك من تحمله الأنفة على عدم قبول الوعظ كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ** ﴾ اهـ.

وأفضل من رأيت في الرجوع إلى الحق والإذعان للدليل أمام الناس دون أي تحرج هو شيخنا مقبل بن هادى الوادعى رحمه الله تعالى، فهكذا عرفناه إلى آخر أيامه، ففي آخر صحبة لي معه، وقبل موته ببضعة أشهر جمعني وإياه مجلس فيه

بعض أهل العلم وطلابه ، فسأله بعض الطلبة عن حكم التسمي بعبد المنعم ، فقال الشيخ: جائز ، فقلت:يا شيخ لا يوجد دليل صحيح يفيد بأن المنعم من أسماء الله عز وجل .

فقال الشيخ رحمه الله: فعلى هذا لا يجوز ، ثم قال: إن الأخ مستفيد يا إخوان ، فرحمه الله رحمة واسعة .

وأما كثير من الطلبة ، بل كثير ممن ينسبون إلى العلم إذا روجع فإنه يستنكف أن يقر بوقوعه في الخطأ والرجوع إلى الصواب ، خاصة إذا كان الذي يراجعه قرينه أو من دونه ، وأشد من ذلك ما إذا كان على ملأ من الناس ، وإنما حمله على ذلك قلة الإخلاص ، نسأل الله السلامة والعافية .

وفي السير (٧/ ٣٩٣):عبد الرحمن بن مهدي عن طالوت سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: ما صدق الله عبدٌ أحب الشهرة .

قال الذهبي:علامة المخلص الذي قد يحب شهرة ولا يشعر بها أنه إذا عوتب في ذلك لا يحرد ، ولا يبرئ نفسه ، بل يعترف ، ويقول: رحم الله من أهدى إليّ عيوبي ، ولا يكون معجبا بنفسه لا يشعر بعيوبها ، بل لا يشعر أنه لا يشعر ، فإن هذا داء مزمن .

* * * * *

ملل بعض الطلبة وانصرافهم

إن طلب العلم كغيره من أعمال الخير والبر يعتري السائر إلى الله فيها نشاط وهمة، ويعتريه فتور وانحسار، والموفق من يتمسك بأصل العمل، وإن اعتراه ضعف وفتور جاهد نفسه وصبر وصابر حتى يصل إلى بر الأمان، ويفلت من حبائل الشيطان الذي هو لابن آدم كقاطع الطريق يريد أن يصرفه عن كل طريق فيه نجاته وفلاحه، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منه ومن أعوانه .ومن الطلبة من إذا أصابه الملل والفتور انصرف عن الطلب، وأصابه الدبور، فأضاع ما حصل من العلم، ونكص على عقبيه، نسأل الله السلامة والعافية . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن لكل شيء شرة، ولكل شرة فترة، فإن كان صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه»**[(١)] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت شرته إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»**[(٢)] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم اليوم كثير، فقال:واعجبا لك يا ابن عباس أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟ قال: فتركت ذاك، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺوإن كان يبلغني الحديث عن الرجل، فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه يسفي الريح علي من التراب،

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٣)، وإسناده حسن، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصححه شيخنا الألباني كما في صحيح الجامع (٢١٥١) .

(٢) رواه أحمد (٢/١٥٨، ١٨٨)، وإسناده صحيح، ورواه أحمد أيضا (٥/٤٠٩) عن مجاهد عن رجل من أصحاب الرسول ﷺ .

فيخرج ، فيراني ، فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ، ما جاء بك هلا أرسلت إلي فآتيك ، فأقول: لا ، أنا أحق أن آتيك ، قال: فأسأله عن الحديث ، فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رآني ، وقد اجتمع الناس حولي يسألوني ، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني[1] .

وهذا مما يحث الطالب على الصبر في طلب العلم وتحصيله وإن ظن أنه لا يحتاج إلى علمه فليعلم أن ذلك من وسوسة الشيطان ، فإنه إن لم يحتج إلى علمه في وقت ،فليكن على يقين بأنه سيأتي عليه بإذن الله يوم يحتاج الناس فيه إلى علمه ، فالذي يطول عمره من أهل العلم يتزاحم الناس عليه ، ففي السير (١٦/ ٤١):طال عمر أبي بكر الشافعي ، وتفرد بالرواية عن جماعة ، وتزاحم عليه الطلبة لإتقانه ، وعلو إسناده .

وبعض الطلبة لا يصبر على مشاق طلب العلم فينصرف عنه .

وقال يحيى بن أبي كثير: لا يستطاع العلم براحة البدن .

وفي السير (١٠/ ٨٩): قال الشافعي رحمه الله: لا يبلغ في هذا الشأن رجل حتى يضر به الفقر ، ويؤثره على كل شيء .

وفي السير أيضا (١٨/ ٤٥٨ - ٤٥٩): قال أبو العباس الجرجاني القاضي: كان أبو إسحاق[2]لا يملك شيئاً ، بلغ به الفقر حتى كان لا يجد قوتاً ولا ملبساً ، كنا نأتيه وهو ساكن في القطيعة ، فيقوم لنا نصف قومة كي لا يظهر منه شيء من العري ، وكنت أمشي معه ، فتعلق به باقلاني ، وقال: يا شيخ كسرتني وأفقرتني ، فقلنا: وكم لك عنده؟ . قال: حبتان من ذهب أو حبتان ونصف .

---

(١) رواه الحاكم (١/ ١٠٦ - ١٠٧) والدارمي (٥٩٠) وغيرهما ، وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ، وهو أصل في طلب الحديث وتوقير المحدث ، وإسناده صحيح .

(٢) هو أبو إسحاق الشيرازي ، صاحب المهذب .

وفيه أيضا (١٨/ ٣٦٧): قال الحسن بن علي الوخشي يوماً: رحلت، وقاسيت الذل والمشاق، ورجعت إلى وخش، وما عرف أحد قدري، فقلت: أموت، ولا ينتشر ذكري، ولا يترحم أحد عليّ، فسهل الله، ووفق نظام الملك حتى بني هذه المدرسة، وأجلسني فيها أحدث، لقد كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحح، وبقيت أياما بلا أكل، فقعدت بقرب خباز لأشم رائحة الخبز، وأتقوى بها.

* * * * *

تخلف العمل عن العلم

إن تحصيل العلم الشرعي ليس غاية ، وإنما هو وسيلة لمعرفة الله عز وجل ومعرفة حقه على العبيد ، ثم الاجتهاد في القيام بهذا الحق قدر الاستطاعة وعلى هذا المعنى تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة .

وقد ذم الله عز وجل من لم يعمل بعلمه ، فقال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ** ﴾ . وقال تعالى: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾، ثم أتبع ذلك عز جل بقوله: ﴿ **وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ ، وعن أبي وائل قال: قيل لأسامة لو أتيت فلاناً ، فكلمته ، قال:إنكم لترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم ، إني أكلمه في السر دون أن أفتح باباً لا أكون أول من فتحه ، ولا أقول لرجل أن كان عليّ أميراً إنه خير الناس بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ ، قالوا: وما سمعته يقول؟ . قال: سمعته يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[1] .

ولذا فالعلم علمان علم ينفع صاحبه ، وعلم يضر به ، فمن أورثه العلم خشية الله عز وجل كان علمه نافعاً ، ومن لم يكن كذلك أضر به علمه ، ولم ينتفع به .

وقد قال الله عز وجل: ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

وقد كثر في أيامنا من لا تجد لعلمه أثراً في أخلاقه وسلوكه ومعاملاته ، بل وفي

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) .

عبادته ، فتجد علمه في جانب وهذه الأمور في جانب آخر ، وهذا من أخطر الآفات على طالب العلم ، ولأهمية هذا الأمر ألف فيه بعض أهل العلم أجزاء مفردة مثل: "اقتضاء العلم العمل" للخطيب البغدادي وكتاب "ذم من لا يعمل بعلمه" لابن عساكر .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لا تكون تقيا حتى تكون عالما ، ولا تكون بالعلم جميلا حتى تكون به عاملا .

وعن الحسن قال: العالم الذي وافق علمه عمله ، ومن خالف علمه عمله فذلك راوية أحاديث سمع شيئاً ، فقاله .

وكان سفيان الثوري ينشد متمثلا -وهي لسابق البربري في شعر له:

إذا العلم لم تعمل به كان حجة ::: عليك ولم تعذر بما أنت جاهله

فإن كنت قد أوتيت[1] علما فإنما ::: يصدق المرء ما هو فاعله

وقال الثوري أيضا: العلماء إذا علموا عملوا ، فإذا عملوا شغلوا ، فإذا شغلوا فقدوا ، فإذا فقدوا طُلبوا ، فإذا طلبوا هربوا .

وقال بشر بن الحارث:

إنما أنت متلذذ تسمع وتحكي ، إنما يراد من العلم العمل ، اسمع ، وتعلم ، واعلم ، وعلم ، واهرب ، ألم تر إلى سفيان كيف طلب العلم ، فعلم ، وعلّم ، وعمل ، وهرب ، وهكذا العلم إنما يدل على الهرب عن الدنيا ليس على طلبها .

وقال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا .

وعن زياد بن أبي سفيان قال: إذا خرج الكلام من القلب وقع في القلب ، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان .

وعن سلمان قال: يوشك أن يظهر العلم ويخزن العمل ، يتواصل الناس

(١) في جامع بيان العلم المطبوع: أتيت ، وقد غيرته بما ظهر لي أنه الصواب .

بألسنتهم، ويتقاطعون بقلوبهم، فإذا فعلوا ذلك طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم.

وقال أيوب السختياني: قال لي أبو قلابة:

يا أيوب إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة، ولا يكن همك أن تحدث به.

وقال وكيع: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، وكنا نستعين في طلبه بالصوم[1].

وقال أبو إسحاق الألبيري:

وإن أوتيت فيه طويل باع	:::	**وقال الناس إنك قد سبقتا**
فلا تأمن سؤال الله عنه	:::	**بتوبيخ: علمت فهل عملتا؟**
فرأس العلم تقوى الله حقا	:::	**وليس بأن يقال: لقد رأستا**
إذا ما لم يفدك العلم خيراً	:::	**فخير منه أن لو قد جهلتا**

وفي الحلية (١/٢١٣): عن حميد بن هلال قال: كان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه يقول: إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لي: قد علمت، فما عملت فيما علمت؟.

وفيها (١/٢١٤) عنه أيضا قال: أخوف ما أخاف أن يقال لي يوم القيامة: يا عويمر أعلمت أم جهلت؟

فإن قلت: علمت لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها الآمرة: هل ائتمرت؟ والزاجرة هل ازدجرت؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع.

فأين من هذا أقوام شغلوا أنفسهم بتخريج الأحاديث وجمع طرقها والبحث عن عللها مع بعد شديد عن البحث عن السنن والعمل بها ونشرها بين الناس؟، وقد كان العلماء يحذرون من الانكباب على الحديث والانشغال به عما يلزمه من العمل

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/٦٩٨ - ٧٠٩) بتصرف.

والعبادة ، قال محمد بن يوسف الفريابي: كنت أمشي مع ابن عيينة ، فقال لي: يا محمد ، ما يزهدني فيك إلا طلب الحديث . قلت: فأنت يا أبا محمد أي شيء كنت تعمل إلا طلب الحديث؟

فقال: كنت إذ ذاك صبيا ، لا أعقل .

قال الذهبي:إذا كان مثل هذا الإمام يقول هذه المقالة في زمن التابعين أو بعدهم بيسير ، وطلب الحديث مضبوط بالاتفاق ، والأخذ عن الأثبات الأئمة ، فكيف لو رأى سفيان رحمه الله طلبة الحديث في وقتنا ، وما هم عليه من الهنات والتخبيط ، والأخذ عن جهلة بني آدم ، وتسميع ابن شهر

أما الخيام فإنها كخيامهم ::: وأرى نساء الحي غير نسائها اهـ.[1]

قلت:وماذا يقول ابن عيينة إذا رأى من ينسبون إلى طلب الحديث في زماننا الذين جمعوا بين قلة العلم والعمل وسوء الأدب ، كمن جمع له بين حشف وسوء كيله ، وإلى الله المشتكى .

وفي السير (٤/ ٣٠٣): قال الشعبي: ليتني لم أكن علمت من ذا العلم شيئاً . فقال الذهبي:لأنه حجة على العالم ، فينبغي أن يعمل به ، وينبه الجاهل ، فيأمره وينهاه ، ولأنه مظنة أن لا يخلص فيه ، وأن يفتخر به ، ويماري به ، لينال رئاسة ودنيا فانية .

ومن أمثلة أثر العلم في سلوك السلف ما في الحلية (٤/ ١٣٥) بإسناد صحيح عن أبي حيان التيمي قال ثنا أبي قال: كان شريح إذا مات لأهله سنور أمر بها ، فألقيت في جوف داره ، ولم يكن لها مثغب شارع إلا في جوف داره اتقاء لأذى المسلم .

وفي السير (٧/ ٢٥٥): قال الثوري: وددت أن علمي نسخ من صدري ، ألست أريد أن أسأل غداً عن كل حديث رويته ، أيش أردت به؟

---

(١) السير (٨/ ٤٦٣) .

قال يحيى القطان: كان الثوري قد غلبت عليه شهوة الحديث، ما أخاف عليه إلا من حبه للحديث.

قال الذهبي: حب ذات الحديث والعمل به لله مطلوب من زاد المعاد، وحب روايته وعواليه والتكثر بمعرفته وفهمه مذموم مخوف، فهو الذي خاف منه سفيان والقطان وأهل المراقبة، فإن كثيرا من ذلك وبال على المحدث.

وفي الحلية (٣/ ٢٣): عن خالد بن خداش عن حماد بن زيد قال سمعت يونس بن عبيد يقول: عمدنا إلى ما يصلح الناس فكتبناه، وعمدنا إلى ما يصلحنا فتركناه.

قال خالد: يعني: التسبيح والتهليل وذكر الخير.

وفي الحلية (٨/ ٣٣٧): عن بشر بن الحارث قال: أدوا زكاة الحديث، فاستعملوا من كل مائتي حديث خمسة أحاديث.

وفي السير (٧/ ٣٩٤): عن إبراهيم بن أدهم قال: كل ملك لا يكون علدلا فهو واللص سواء، وكل عالم لا يكون تقيا فهو والذئب سواء، وكل من ذل لغير الله فهو والكلب سواء.

وفي السير (١٣/ ٣٢٣): قال عثمان بن سعيد: من لم يجمع حديث شعبة وسفيان ومالك وحماد بن زيد وسفيان بن عيينة فهو مفلس في الحديث، قال الذهبي: يريد أنه ما بلغ درجة الحفاظ. وبلا ريب أن من جمع علم هؤلاء الخمسة، وأحاط بسائر حديثهم، وكتبه عاليا ونازلا، وفهم علله فقد أحاط بشطر السنة النبوية، بل بأكثر من ذلك، وقد عدم في زماننا من ينهض بهذا، وببعضه، فنسأل الله المغفرة، وأيضا فلو أراد أحد أن يتتبع حديث الثوري وحده، ويكتبه بأسانيد نفسه على طولها، ويبين صحيحه من سقيمه لكان يجيء مسنده في عشر مجلدات، وإنما شأن المحدث اليوم الاعتناء بالدواوين وأسانيدها، ثم لا ينتفع بذلك حتى يتقي ربه، ويدين بالحديث،

فعلى علم الحديث وعلمائه ليبك من كان باكياً . فقد عاد الإسلام المحض غريباً كما بدأ ، فليسع امرؤ في فكاك رقبته من النار ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم العلم ليس هو بكثرة الرواية ، ولكنه نور يقذفه الله في القلب ، وشرطه الاتباع ، والفرار من الهوى والابتداع ، وفقنا الله وإياكم لطاعته . ا هـ .

* * * * *

التهاون في حق الله في تبليغ العلم والدعوة إلى الله

سبق بيان أن العلم يستوجب العمل، وأن من لم يعمل بعلمه فهو حجة عليه، ومن أهم ما يجب على من حصل علماً هو تبليغه ونشره بين الناس والدعوة إلى الله عز وجل، فقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

وعن أبي بكرة أن النبي ﷺ قعد على بعيره، وأمسك إنسان بخطامه - أو بزمامه - قال: «**أي يوم هذا؟**». فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، قال: «**أليس يوم النحر؟**». قلنا: بلى. قال: «**فأي شهر هذا؟**». فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه، فقال: «**أليس بذي الحجة؟**». قلنا: بلى. قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه**»[2].

وعن أبي شريح رضي الله عنه أنه قال لعمرو بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة -ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به: حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن**

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) وغيره.

(٢) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) وغيرهما.

لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب» .

فقيل لأبي شريح: ما قال عمرو؟

قال:أنا أعلم منك يا أبا شريح لا يعيذ عاصياً ، ولا فارا بدم ، ولا فارا بخربة[١] .

فهذه النصوص وغيرها مما في معناها توجب على كل من عرف شيئا من دين الله عز وجل معرفة صحيحة أن يبلغه إلى غيره ، ويتأكد ذلك في حق طالب العلم ، لأن العلماء وطلاب العلم هم أمناء الله على دينه والمسؤولون بالدرجة الأولى عن تعليم الناس دين الله عز وجل ، فقد قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ .

ومع وضوح هذا الأمر فإن كثيراً من طلبة العلم لا يلتفتون إلى هذا الواجب ، وخاصة من كان منهم منشغلا بأمور نظرية أو كان عاملا في مجال تحقيق كتب التراث ونحو ذلك ، فلقد رأينا بعض طلاب العلم يعملون في مكاتب التحقيق ، وعنده قدر من العلم ، والمساجد حوله خاوية من أي نوع من أنواع العلم والتعليم ، والناس في جهل شديد ، وأصحاب الفساد والانحلال والضلال ولانحراف وأعداء الإسلام يعملون على قدم وساق في نشر ضلالهم وانحرافهم ، وطالب العلم يصم أذنيه ، ويعمي بصره ، ويغلق قلبه أن يتأثر بشيء مما حوله ليحمله على القيام بواجبه تجاه دينه وتبليغ الأمانة التي حمله الله إياها ، وإن كان ما يقوم به طالب العلم من الدراسة النظرية أو تحقيق كتب أهل العلم من الخير العظيم إلا أن ذلك لا يعفيه من مسؤولية القيام بتبليغ العلم إلى الناس والدعوة إلى الله بقدر استطاعته ، وإلا

---

(١) رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤) وغيرهما .

فسوف يسأل عن ذلك بين يدي الله عز وجل ، فنسأل الله عز وجل أن يعيننا وإخواننا على القيام بحق الله عز وجل .

وفي الحلية (٦/ ٣٦٦): عن يحيى بن يمان قال سمعت سفيان يقول: لو لم يأتني أصحاب الحديث لأتيتهم في بيوتهم .

وقال أيضا: لو أني أعلم أن أحداً يطلب الحديث بنية لأتيته في منزله حتى أحدثه .

وفي الحلية (٨/ ٢٥٤): عن أبي أسامة عن الفضيل بن عياض قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وإلى جنبه فرجة ، فذهبت لأجلس ، فقال: هذا مجلس أبي إسحاق الفزاري ، فقلت لأبي أسامة: أيهما أفضل؟ قال: كان فضيل رجل نفسه ، وكان أبو إسحاق رجل عامة .

* * * * *

ضياع الأمانة العلمية عند كثير ممن ينتسبون لطلب العلم

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن امرأة قال:يا رسول الله ، إن لي ضرة ، فهل على جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**»[١] .

قال ابن حجر في الفتح: قال الزمخشري في "الفائق": المتشبع أي المتشبه بالشبعان وليس به ، واستعير للتحلي بفضيلة لم يرزقها ، وشبه بلابس ثوبي زور أي ذي زور ، وهو الذي يتزيا بزي أهل الصلاح رياء ،وأضاف الثوبين إليه لأنهما كالملبوسين ، وأراد بالتثنية أن المتحلي بما ليس فيه كمن لبس ثوبي الزور ارتدى بأحدهما واتزر بالآخر ، كما قيل: إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا . فالإشارة بالإزار والرداء إلى أنه متصف بالزور من رأسه إلى قدمه ،ويحتمل أن تكون التثنية إشارة إلى أنه حصل بالتشبع حالتان مذموتان: فقدان ما يتشبع به وإظهار الباطل . وقال المطرزي: هو الذي يرى أنه شبعان ، وليس كذلك . ا هـ .

قلت:إذا كان من ادعى شيئا لنفسه من الأمور الدنيوية وليس فيه مذموماً فلا شك أن من ادعى شيئا من أمور الدين وليس فيه أشد ذما ، والفرق بينهما كالفرق بين الدين والدنيا .ولا شك أيضا أن ما يفعله بعض من ينتسبون إلى طلب العلم من أهل هذه الأزمنة من كونهم يأخذون أبحاث طلبة علم آخرين فينسبونها إلى أنفسهم أنهم داخلون من باب أولى في هذا الذم سواء كان أخذهم البحث كاملا أو بعضه ، وسواء أبقوا عليه أم غيروا شيئا من صياغته تمويهاً على الناس ، وسواء كان ذلك تصنيفا أم تخريجا للأحاديث ، وسواء كان بأجرة أم بغير أجرة ، وسواء كان برضى صاحبه أم بغيره ، فكل ذلك داخل في الذم بلا شك .

وأما من يقيس فعل هؤلاء بصاحب مصنع يعمل فيه جماعة من المتخصصين

---

(١) رواه البخاري (٥٢١٩) ، ومسلم (٢١٣٠) وغيرهما ، ورواه مسلم (٢١٢٩) من حديث عائشة .

والعـاملين ، ثـم تخـرج الصنعة عليها اسم صاحب المصنع وحده ، فهذا قياس فاسد مـن وجـوه أهمهما: الوجه الأول:أن نسبة الصنعة إلى صاحب المصنع أمر ليس فيه تغريـر ، لأنه لا يخفى على أحد أن صاحب المصنع ليس هو الذي قام بتصنيعه ، ولا يستطيع ذلك ، بخلاف من يأخذ جهد غيره العلمي .

الوجـه الـثاني:أن المعـروف عـند أصـحاب المصانع أنهم لا يخفون ولا يدارون على الناس قيام غيرهم بهذا العمل ، بخلاف من يستعمل أحداً في عمل علمى ، فإنه يخفـيه عـلى الـناس ، وقـد قـال رسول الله ﷺ: **«الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»** [1] .

الوجه الثالث:أن الذي يستعمل طلاب العلم في جمع مادة علمية ، ثم يأخذ هذا الجهـد وينسـبه لنفسـه ، فإنـه يتـبوأ بذلـك مكانـة علمية لا يستحقها ، وفي ذلك من التغرير شيء عظيم .

الوجـه الـرابع:أن هـذا الذي يأخذ جهد غيره تكثر مؤلفاته ، فيطغى صيته على مـن لا يدخـل في مصـنفاته إلا جهده ، فيكون في ذلك إضاعة لحقوق الأمناء ، ومن تدبـر عمـل أولئك الذين يسطون على جهود غيرهم لم يتردد لحظة في القول بتحريم هـذا العمـل ، ويشـترك في هـذا الإثم الناشر إذا علم بأن هذا العمل ليس جهد ذاك المؤلف وحده ، وذلك لكونه من التعاون على الإثم والعدوان ، ولقد سن لنا رسول الله ﷺطـريق الأمانـة العلمـية ، فقـد كـان الحـبر مـن اليهود يأتيه ويسأله عن أشياء فيجيـبه علـيها فـيقول لقد سألني هذا ولا علم لي بشيء من ذلك حتى أتاني جبريل بذلك ، وسار على هديه أئمة الإسلام وعلماء المسلمين .

ففـي السـير (١٣/ ٣٨٠): قـال محمد بن بركة الحلبي: سمعت عثمان بن خرزاذ يقـول:يحـتاج صاحب الحديث إلى خمس ، فإن عدمت واحدة فهي نقص ، يحتاج إلى عقل جيد ودين وضبط وحذاقة بالصناعة ، مع أمانة تعرف منه .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣) وغيره .

قال الذهبي:الأمانة جزء من الدين ، والضبط داخل في الحذق ، فالذي يحتاج إليه الحافظ أن يكون تقيا ذكيا ، نحويا لغويا ، زكيا حييا سلفيا ، يكفيه أن يكتب بيده مائتي مجلد ، ويحصل من الدواوين المعتبرة خمسمائة مجلد ، وأن لا يفتر من طلب العلم إلى الممات بنية خالصة وتواضع ، وإلا فلا تتعن .

وفي السير (٧/ ٢٠٤ - ٢٠٥): ذكر الذهبي الرواة عن شعبة ، ثم قال: استفدت أسماءهم من خط الحافظ أبي عبد الله بن منده .

وقد دخل في العلم من ليسوا له بأهل ، فانتحلوا مراتب ليست لهم ، وغرروا بطلاب العلم والعلماء ، ولئن وجدت هذه الطائفة المذمومة فهناك من ضرب أروع الأمثلة في الأمانة العلمية ، والتحري في نسبة كل قول إلى قائله ، وكل عمل إلى صاحبه ، فمن هؤلاء وعلى رأسهم شيخنا مقبل بن هادي رحمه الله ، ومن أراد أن يقف على ذلك بنفسه فليرجع إلى كتابه رجال الحاكم وكذا رجال الدارقطني يرى العجب العجاب ، فرحمه الله رحمة واسعة .

وقال الشيخ الفاضل بكر بن عبد الله أبوزيد في كتاب التعالم ص(٦٢): ومن وراء هذين صنف ثالث مفلس من المال والجاه والعلم "خزينته أصفار ، وخزانته بلا أسفار"وهزائم لا تعرف العزائم ، يسعى من أثقلته لبناء مجد موهوم ، فيسرق كتاب هذا ، ويشتري جهد ذاك ، ويخرج للناس عشرات المؤلفات ، وهو مفلس منكود ، ومفتضح منبوذ .

وقد وقفت على حقائق في هذا من هذا الثالوث الخاسر المسيء للحقيقة والواقع ، والزمن كفيل بكشف هذا التجني ، وعلى براقش نفسها تجني ، وإلا فهو في سعة من هذا التبني ، والسعيد من وقف عند حده ، ولم يتجاوز طوره ، وإن الكساح الصادق أسعد من المتعالم الكاذب .

* * * * *

فتنة العالم بكثرة أتباعه

إن من أعظم الفتن خطواً على الدعاة وأهل العلم هي فتنة الأتباع ، فإن الشخص إذا عظم في أعين الناس يخشى عليه ألا يذعن للحق وينقاد له خشية أن يقول الناس إنه لم يكن على الصواب ، فيصغر في أعينهم ، فكثيراً ما يجادل عن رأيه خاصة إذا شاع بين الناس لهذه الغاية الحقيرة ، ولا يسلم من ذلك كبير أحد .

وقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن لكل شيء شرة**[1]**، ولكل شرة فترة، فإن كان صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه**»[2] .

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٢٥٨): وقد ضرب عمر بن الخطاب أبي ابن كعب رضي الله عنهما بالدرة لما رأى الناس يمشون خلفه ، فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟

فقال:هذا ذلة للتابع فتنة للمتبوع ، وهذا الأثر رواه سعيد بن منصور عن سفيان بن عيينة قال:رأى عمر مع أبي بن كعب جماعة ، فعلاه بالدرة ، فقال: أني أعلم ما تصنع يرحمك الله ، فقال: أما علمت أنها فتنة للمتبوع مذلة للتابع؟ .

وفي الحلية (٨/ ٩٧):عن أبي جعفر محمد بن عبد الله الحذاء قال: وقفنا للفضيل بن عياض على باب المسجد الحرام ونحن شبان علينا الصوف ، فخرج علينا ، فلما رآنا قال:وددت أني لم أركم ، ولم تروني ، أترونى سلمت منكم أن أكون ترسا لكم حيث راءيتكم وتراءيتم لي ، لأن أحلف عشراً أني مرائي وأني مخادع أحب إلى من أن أحلف واحدة أني لست كذلك .

* * * * *

---

(١) الشرة هي: النشاط .

(٢) الترمذي (٢٤٥٣) ، وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

قلت: وإسناده حسن .

تطلع بعضهم إلى ما آتى الله بعض أهل العلم من بسطة في أمر الدنيا

إن أهل العلم الصادقين هم أعرف الناس بالله عز وجل وأكثرهم له خشية، فعن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر، ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1]. فالأنبياء هم أعرف الناس بالله عز وجل وأتقاهم له وأكثرهم له خشية، والعلماء هم ورثة الأنبياء، فالعلماء الربانيون شغلهم الشاغل تقوى الله عز وجل والسعي لما يرضيه ولما يجنبهم سخطه جل وعلا، فمن أوتي من أهل العلم بسطة في الدنيا من مال أو جاه أو منصب، فمثل هذه الأمور لا قيمة لها عنده إلا أن يستخدمها في مرضاة الله عز وجل، فهم قد تأسوا بمعلمهم الأول ﷺ حيث قال أبو ذر رضي الله عنه: كنت مع النبي ﷺ، فلما أبصر - يعني أحدا - قال: «**ما أحب أنه تحول لي ذهباً يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلا ديناراً أرصده لدين**». ثم قال: «**إن الأكثرين هم الأقلون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا** - وأشار أبو شهاب (يعني الراوي) **بين يديه وعن يمينه وعن شماله - وقليل ما هم....**» الحديث[2]. فهكذا كان أئمة الدين ممن رزق دنيا لا يعيرها اهتماما إلا أن يستعملها في طاعة الله ويعف نفسه ومن يعول، فمن هؤلاء عبد الله بن المبارك رحمه الله، فقد كان يتجر لينفق على أهل العلم، قال العيشي ثنا الحمادان أن ابن المبارك كان يتجر، ويقول: لولا خمسة ما اتجرت: السفيانان، وفضيل، وابن السماك، وابن علية، فيصلهم. فقدم

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ورواه مسلم (١٤٠١) من وجه آخر عن أنس، وليس فيه (إني لأخشاكم لله).
(٢) رواه البخاري (٢٣٨٨)، ومسلم (٩٤) وغيرهما.

سنة ، فقيل لـه:قـد ولي ابن علية القضاء ، فلم يأته ، ولم يصله ، فركب ابن علية إليه ، فلم يرفع به رأساً ، فانصرف ، فلما كان من غد كتب إليه رقعة يقول: قد كنت منتظراً لبرك ، وجئتك فلم تكلمني ، فما رأيته مني؟ فقال ابن المبارك يأبى هذا الرجل إلا أن تقشر لـه العصا ، ثم كتب إليه:

يـا جـاعل العـلم لـه بازياً[1] ::: يصـطاد أمـوال المسـاكين
احتلـت للدنـيا ولذاتهـا ::: بحـيلة تذهـب بـالدين
فصـرت مجـنوناً بهـا بعـد مـا ::: كنـت دواء لـلمجانين
أيـن روايـاتك فـيما مضـى ::: عـن ابـن عـون وابـن سـيرين
أيـن روايـاتك في سـردها ::: في تـرك أبـواب السـلاطين
إن قلـت أكرهـت فـذا بـاطل ::: زل حمـار العـلم في الطـين

فلما وقف على هذه الأبيات قام من مجلس القضاء ، فوطئ بساط الرشيد ، وقال: الله ، الله ، ارحم شيبتي ، فإني لا أصبر على القضاء ، قال: لعل هذا المجنون أغراك ، ثم أعفاه ، فوجه إليه ابن المبارك بالصرة .

قال الحافظ ابن حجر: وقيل:إن ابن المبارك إنما كتب إليه بهذه الأبيات لما ولي صدقات البصرة ، وهو الصحيح . ا هـ .[2] .

وفي الحلية (٤/ ٢٤٢): عن عون بن عبد الله قال: صحبت الأغنياء فلم يكن أحد أطول غما مني ، فإن رأيت رجلا أحسن ثيابا مني وأطيب ريحا مني غمني ذلك ، فصحبت الفقراء فاسترحت .

ولم يخل عصرنا من هؤلاء العلماء الذين أتتهم الدنيا فلم تؤثر فيهم ولم يكن لها في نفوسهم قدر ، ومن هؤلاء إمام العصر الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تعالى الذي أتته الدنيا فكان يقول بها هكذا وهكذا ، لأنه عرف أن العلم أغلى من الدنيا وما فيها .

---

(١) البازي نوع من الصقور التي تصيد .
(٢) تهذيب التهذيب - ترجمة إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الشهير بابن علية .

فيا طالب العلم إذا رأيت واحداً من أهل العلم أتاه الله جاهاً أو مالاً أو رئاسة ، فلا تشغل قلبك بدنياه ، فإنه ما نالها إلا بالعلم ، وهي حقيرة في نفسه طالما أنه على التقوى والدين ، فلا تترك ما يعظمه العالم من العلم والورع لما يحتقره من الدنيا الفانية ، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ولقد كان شيخنا مقبل رحمه الله إماماً في هذا الباب ، فقد كانت الدنيا بين يديه ، فلفظها ، ولم يعدها شيئا ، فلقد كانت تهدى إليه أفخم السيارات وأحدثها ، فيستعملها في الدعوة إلى الله فيخرج فيها طلاب العلم يجوبون بها البلاد ، وهذه هي قيمتها عنده ، فأسأل الله عز وجل أن يصلح قلوبنا وقلوب إخواننا من طلاب العلم ، وإلا فقد رأينا كثيراً ممن ينسبون أنفسهم لطلب العلم أكثر ما يعجبهم من العالم أو الداعية دنياه من جاه ومنزلة عند الوجهاء أو مال أو سيارة فارهة ، وبأمثال هؤلاء ينزل البلاء ، نسأل الله السلامة والعافية .

* * * * *

استرواح بعضهم للدخول على الظلمة وإقبالهم عليهم حال الاختيار

بوب ابن مفلح في الآداب الشرعية باب (**انقباض العلماء المتقين من إتيان الأمراء والسلاطين**)، ثم قال: كان الإمام أحمد رحمه الله لا يأتي الخلفاء ولا الولاة والأمراء، ويمتنع من الكتابة إليهم، وينهى أصحابه عن ذلك مطلقاً، نقله عنه جماعة، وكلامه فيه مشهور.

وقال مهنا: سألت عن إبراهيم بن الهروي[١]، فقال: رجل وسخ، فقلت: ما قولك: إنه وسخ؟ قال: من يتبع الولاة والقضاة فهو وسخ. وكان هذا رأي جماعة من السلف، وكلامه[٢] في ذلك مشهور منهم: سويد ابن غفلة، وطاووس، والنخعي، وأبو حازم الأعرج، والثوري، والفضيل ابن عياض، وابن المبارك، وداود الطائي، وعبد الله بن إدريس، وبشر ابن الحارث الحافي، وغيرهم، وقد سبق قوله عليه الصلاة والسلام: «**من أتى أبواب السلطان افتتن**»[٣]. وهو محمول على من أتاه لطلب الدنيا، لاسيما إن كان ظالما جائرا، أو على من اعتاد ذلك، ولزمه، فإنه يخاف عليه الافتتان والعجب بدليل قوله في اللفظ الآخر: «**ومن لزم السلطان افتتن**». وخالفهم في ذلك جماعة من السلف منهم عبد الرحمن بن أبي ليلى، والزهري، والأوزاعي وغيرهم[٤].

ومن العجب أن أبا جعفر العقيلي ذكر عبد الرحمن بن أبي ليلى في كتابه الضعفاء، ولم يذكر فيه إلا قول إبراهيم النخعي: كان صاحب أمراء، وعن أحمد أيضا معنى قول هؤلاء.

---

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن حاتم الهروي، وثقه غير واحد من الأئمة، ومع ذلك قال فيه الإمام أحمد ما قال لاتباعه الولاة والقضاة، والله المستعان.

(٢) كذا بالأصل، والصواب: وكلامهم.

(٣) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٥٧) من حديث ابن عباس، و(٢/ ٣٧١) من حديث أبي هريرة وفي الطريقين مقال، وقد ضعفه محققو المسند، وقد احتج به أحمد كما ترى، والعلم عند الله تعالى.

(٤) وهؤلاء كانوا ينصحون الحكام إذا دخلوا عليهم كما هو مشهور من سيرتهم فليعلم ذلك.

وروى الخلال عنه أنه سئل عن الأخبار التي جاءت في أبواب هؤلاء السلاطين إذا كان للرجل مظلمة؟ فلم ير أن هذا داخل في ذلك إذا كان مظلوماً، فذكر له تعظيمهم، فكأنه هاب ذلك.

وقد قال في رواية أبي طالب، وسأله عن رجل من أهل السنة يسلم على السلطان، ويقضي حوائجه: يسلم عليه؟

قال: نعم، لعله يخافه، ويداريه.

وقال محمد بن أبي حرب: سألت أبا عبد الله عن الرجل من أهل السنة يأتيه السلطان وصاحب البريد؟ قال: يمكنه معاندة السلطان؟

قلت: ربما بعثه إليه في الحاجة من الخراج أو في رجل في السجن؟

قال: هذا يكون مظلوماً، فيفرج عنه.

وقال أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد[1] عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه سمعت أبا يوسف القاضي يقول: خمسة تجب على الناس مداراتهم: الملك المسلط، والقاضي المتأول، والمريض، والمرأة، والعالم ليقتبس من علمه، فاستحسنت ذلك.

وفي الحلية (٥/ ١٤٠): عن أبي زرعة أن عبد الملك بن مروان بعث إلى ابن محيريز بجارية، فترك ابن محيريز منزله فلم يكن يدخله. فقيل له: يا أمير المؤمنين نفيت ابن محيريز عن منزله، قال: ولم؟ قال: من أجل الجارية التي بعثت بها إليه، قال: فبعث عبد الملك فأخذها.

وفي الحلية (٤/ ١٤): عن النعمان بن الزبير الصنعاني أن محمد ابن يوسف أخا الحجاج أو أيوب بن يحيى بعث إلى طاووس بسبعمائة دينار أو خمسمائة، وقيل للرسول: إن أخذها منك، فإن الأمير سيكسوك ويحسن

---

[1] في الأصل: أبو بكر محمد الحسن بن زياد، وهذا تحريف، وقد أضفت كلمة (بن) والظاهر أنه محرف من (أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد)، وهو أبو بكر النيسابوري، والله أعلم.

إليك ، قال: فخرج بها حتى قدم على طاووس الجند ، فقال: يا أبا عبد الرحمن نفقة بعث الأمير بها إليك ، قال: ما لي بها من حاجة ، فأراده على أخذها ، فأبى أن يقبل طاووس ، فرمى بها في كوة البيت ، ثم ذهب ، فقال لهم: قد أخذها ، فلبثوا حيناً ، ثم بلغهم عن طاووس شيء[1] يكرهونه ، فقال: ابعثوا إليه ، فليبعث إلينا بمالنا ، فجاءه الرسول ، فقال: المال الذي بعث به إليك الأمير؟ قال: ما قبضت منه شيئا ، فرجع الرسول فأخبرهم ، فعرفوا أنه صادق ، فقال: انظروا الذي ذهب بها ، فابعثوه إليه ، فبعثوه فجاءه ، وقال: المال الذي جئتك به يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هل قبضت منك شيئا؟ قال: لا ، قال له: هل تعلم أين وضعته؟ قال: نعم ، في تلك الكوة . قال: انظر حيث وضعته ، قال: فمد يده فإذا هو بالصرة قد بنت عليها العنكبوت . قال: فأخذها ، فذهب بها إليهم .

وقال أبو الفرج ابن الجوزي: ومن صفات علماء الآخرة أن يكونوا منقبضين عن السلاطين ، محترزين عن مخالطتهم ، قال حذيفة رضي الله عنه: إياكم ومواقف الفتن ، قيل: وما هي؟ .

قال: أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير ، فيصدقه بالكذب ، ويقول ما ليس فيه ، وقال سعيد بن المسيب: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص ، وقال بعض السلف: إنك لن تصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك أفضل منه . انتهى كلامه .

وفي الحلية (٥/ ٤٢): عن مفضل قال: كنت مع منصور حين بعث إليه داود بن علي يستعمله ، فدخل عليه كاتبه حجر بن عبد الجبار فقال: إن الأمير يريد أن يستعملك ، فقال: إن ذلك ليس بكائن ، أنا رجل سقيم معتل .

---

(١) في الأصل: شيئا ، والصواب ما أثبت .

وعن مفضل أيضا قال: حبس ابن هبيرة منصورا شهرا يريده على القضاء، فأبى عليه.

وعن أبي بكر بن عياش قال: ربما كنت مع منصور في منزله جالسا، فتصيح به أمه، وكانت فظة غليظة، فتقول: يا منصور يريدك ابن هبيرة على القضاء، فتأبى عليه؟ وهو واضع لحيته على صدره، ما يرفع طرفه إليها.

وفي الحلية (٧/ ٤٠): عن عبيد بن جناد ثنا عطاء بن مسلم قال: لما استخلف المهدي بعث إلى سفيان (يعني الثوري)، فلما دخل خلع خاتمه، فرمى به إليه، فقال: يا أبا عبد الله هذا خاتمي، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة، فأخذ الخاتم بيده، وقال: تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين؟

قال عبيد: قلت لعطاء: يا أبا مخلد قال له: يا أمير المؤمنين؟. قال: نعم. قال: أتكلم على أني آمن؟ قال: نعم. قال: لا تبعث إلى حتى آتيك، ولا تعطني شيئا حتى أسألك، قال: فغضب من ذلك، وهم به، فقال له كاتبه: أليس قد أمنته يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى، فلما خرج حف به أصحابه، فقالوا: ما منعك يا أبا عبد الله وقد أمرك أن تعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة؟ قال: فاستصغر عقولهم، ثم خرج هارباً إلى البصرة.

وقد كانوا يرون العلم أجل وأعظم من المناصب، ففي الحلية (٧/ ٤٧): عن زيد بن أبي خداش قال: لقي سفيان شريكاً بعد ما ولي قضاء الكوفة، فقال: يا أبا عبد الله، بعد الإسلام والفقه والخير تلي القضاء، وصرت قاضياً؟ فقال له شريك: يا أبا عبد الله لابد للناس من قاض، فقال له سفيان: يا أبا عبد الله لابد للناس من شرطي. يعني ينكر عليه، ويقول له: أتقبل أن تكون شرطيا طالما أنه لابد من شرطي؟.

وفي الحلية (٧/ ٤٩): عن سفيان الثوري أنه عاتب رجلا من إخوانه كان هم أن يتلبس بشيء من أمر هؤلاء، فقال له: يا أبا عبد الله إن على

عيالا ، قال:لأن تجعل في عنقك مخلاة ، فتسأل على الأبواب خير من أن تدخل في شيء من أمر هؤلاء .

وفي الحلية (٨/ ٩٨): عن الفضيل بن عياض قال: لأن يدنو الرجل من جيفة منتنة خير له من أن يدنو إلى هؤلاء - يعني السلطان - ، وقال أيضا: رجل لا يخالط هؤلاء ، ولا يزيد على المكتوبة أفضل عندنا من رجل يقوم الليل ، ويصوم النهار ،ويحج ، ويعتمر ، ويجاهد في سبيل الله ، ويخالطهم .

وفي الحلية (٤/ ١٦): عن سفيان قال قال: جاء ابن لسليمان بن عبد الملك ، فجلس إلى جنب طاووس ، فلم يلتفت إليه ، فقيل له: جلس إليك ابن أمير المؤمنين ، فلم تلتفت إليه ، قال: أردت أن يعلم أن لله عباداً يزهدون فيما في يديه .

وعن معمر عن ابن طاووس قال: كنت لا أزال أقول لأبي: إنه ينبغي أن تخرج على هذا السلطان وأن تقعد به ، قال: فخرجنا حجاجاً ، فنزلنا في بعض القرى ، وفيها عامل لمحمد بن يوسف أو أيوب بن يحيى ، يقال له: ابن نجيح ، وكان من أخبث عمالهم ، فشهدنا صلاة الصبح في المسجد ، فإذا ابن نجيح قد أخبر بطاووس ، فجاء ، فقعد بين يديه ، فسلم عليه ، فلم يجبه ، فكلمه ، فأعرض عنه ، ثم عدل إلى الشق الأيسر ، فأعرض عنه ، فلما رأيت ما به قمت إليه فمددت بيده ، وجعلت أسأله ، وقلت له: إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك ، قال: بلى ، معرفته به[1] فعل بى ما رأيت ، قال: فمضى وهو ساكت لا يقول لي شيئا ، فلما دخلت المنزل التفت إلي ، فقال لي:يا لكع بينما أنت زعمت أن تخرج عليهم بسيفك لم تستطع أن تحبس عنهم لسانك .

وعن ميمون بن مهران أن عبد الملك بن مروان قدم المدينة فاستيقظ من

---

(١) لعلها: بي .

قائلته ، فقال لحاجبه:انظر هل ترى في المسجد أحداً من حداثي؟ فلم ير فيه إلا سعيد بن المسيب ، فأشار إليه بأصبعه ، فلم يتحرك سعيد ، ثم أتاه الحاجب ، فقال: ألم تر أني أشير إليك؟ قال: وما حاجتك؟ فقال: استيقظ أمير المؤمنين ، فقال:انظر هل ترى في المسجد أحداً من حداثي؟ فقال سعيد لست من حداثه . فخرج الحاجب فقال: ما وجدت في المسجد إلا شيخاً أشرت إليه فلم يقم ، قلت له: إن أمير المؤمنين استيقظ ، وقال لي: انظر هل ترى أحداً من حداثي؟ قال:إني لست من حداث أمير المؤمنين . قال عبد الملك بن مروان: ذلك سعيد بن المسيب ، دعه .

قال أبو عبد الله:فأين هذا ممن ينتسبون لعلم ثم يلهثون وراء المناصب وأبواب السلاطين والقرب منهم بما هو بين لكل أحد ، نسأل الله السلامة والعافية .

* * * *

جحود الطالب فضل معلمه عليه وعدم رعايته حقه

إن جحود الإنسان الفضل من أهله لمن أسوأ الصفات ، فالله عز وجل وهو الغني عن عباده لايضيع أجر من أحسن عملا . حتى إن الكافر إذا عمل حسنة فإن الله عز وجل يكافئه عليها في الدنيا ، فالله عز وجل يحب من عباده أن يكونوا شاكرين ، فقد قال تعالى: ﴿ **وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾، وقد رتب الله عز وجل أشد العقوبة على من جحد فضل صاحب له من البشر ، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**أريت النار، فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن : قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان. لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط**»[1] .

فإذا دخلت المرأة النار ، وسمى النبي ﷺ جحدها فضل زوجها وإحسانه كفراً وحق الأزواج في الغالب مادي دنيوي - فما بالنا بمن يجحد فضل المعلم الذي هو فضل أخروي ، فإن معلم الناس الخير يرشدهم إلى ما فيه نجاتهم من النار وسعادتهم في الدارين ، فلا شك أنه من أعظم الظلم أن يقابل إحسانه بالنكران .

وقد كثر في المنتسبين إلى طلب العلم جحود فضل معلميهم خاصة إذا صارت لأحدهم وجاهة يستغني بها عن الانتساب لشيخه ، وهؤلاء لم ينتفعوا بعلمهم على الحقيقة ، فإن النبي ﷺ قال: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[2] .

وعلى هذا فلا ينبغي للطالب أن يشعر المعلم أنه استغنى عنه ، فإن أراد أن ينتقل لغيره فعليه أن يستأذنه تطييبا لقلبه ، ففي السير (١٦/ ٥٦): قال أبو علي النيسابوري:استأذنت ابن خزيمة في الخروج إلى العراق سنة ثلاث

---

(١) رواه البخاري (٢٩) ، ومسلم (٩٠٧) وغيرهما .

(٢) رواه أبو داود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) وغيرهما ، وقد سقط من طبعة الأستاذ عزت الدعاس ذكر محمد بن زياد الراوي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وثلاثمائة ، فقال:توحشنا مفارقتك يا أبا علي ، فقد رحلت ، وأدركت العوالي ، وتقدمت في الحفظ ، ولنا فيك فائدة ، فما زلت به حتى أذن لي ، وقال أبو علي: قال لي ابن خزيمة: لقد أصبت في خروجك ، فإن الزيادة على حفظك ظاهرة . اهـ .

وفي الحلية (٣/ ١١): عن أيوب قال: لقد جالست الحسن أربع سنين ، فما سألته هيبة له .

وفي الحلية (٣/ ٣٦٢): عن الزهري قال: إن كنت لآتي باب عروة ، فأجلس ، ثم أنصرف ولا أدخل ، ولو أشاء أن أدخل لدخلت ، إعظاماً له .

* * * * *

مخالطة طالب العلم للمبتدعة.. والمنحرفين

إن من أخطر الأمور على طالب العلم مخالطة المبتدعة والزائغين، فقد قال النبي صلى الله عيه وسلم: **«مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد: لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة»** [(١)] وقال أيضا صلى الله عليه وعلى اله وسلم: **«الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»** [(٢)] وقال أيضا صلى الله عليه وعلى اله وسلم: **«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»** [(٣)] وقال البغوي في شرح السنة (١/ ١٩٢):قد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى اله وسلم عن افتراق هذه الأمة وظهور الأهواء والبدع فيهم، وحكم بالنجاة لمن اتبع سنته وسنة أصحابه رضي الله عنهم، فعلى المرء المسلم إذا رأى رجلا يتعاطى شيئا من الأهواء والبدع معتقدا أو يتهاون بشيءمن السنن أن يهجره، ويتبرأ منه، ويتركه حيا وميتا، فلا يسلم عليه إذا لقيه ولا يجيبه إذا ابتدأ إلى أن يترك بدعته، ويراجع الحق.

والنهي عن الهجران فوق الثلاث فيما يقع بين الرجلين من التقصير في حقوق الصحبة والعشرة دون ما كان ذلك في حق الدين، فإن هجرة أهل الأهواء والبدع دائمة إلى أن يتوبوا.

ثم ذكر قول كعب بن مالك [(٤)]:ونهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أخرج، فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول لنفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟، ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل علي، وإذا التفت

(١) رواه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨) وغيرهما.
(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨) وغيرهما، وإسناده حسن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
(٣) رواه مسلم(١٢٣٨) وغيره.
(٤) يعني حين تخلف في غزوة تبوك، والحديث في الصحيحين.

نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال عليّ ذلك تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي ، وأحب الناس إليّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد عليّ السلام . . . . حتى إذا كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، عن كلامنا آذن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بتوبة الله علينا ، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيتلقاني الناس فوجا فوجا ، يهنئوننى بالتوبة ، فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو يبرق وجهه من السرور: « **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك** » .

قال البغوي:هذا حديث صحيح ، وفيه دليل على أن هجران أهل البدع على التأبيد .وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم خاف على كعب وأصحابه النفاق حين تخلفوا عن الخروج معه ،فأمر بهجرانهم إلى أن أنزل الله توبتهم ، وعرف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم براءتهم ، وقد مضت الصحابة والتابعون وأتباعهم وعلماء السنة على هذا مجمعين متفقين على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم . اهـ .

وفي الحلية (٤/ ٨٤-٨٥): عن فرات بن سلمان[١] عن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تبلون نفسك بهن: لا تدخل على السلطان ، وإن قلت : آمره بطاعة الله ، ولا تدخل على امرأة ، وإن قلت أعلمها كتاب الله ، ولا تصغين بسمعك لذي هوى ، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه .

قلت:والكلام عن السلف في ذلك يطول ، ولذا ينبغي على طالب العلم ألا يخالط مبتدعا إذا أمكنه الاستغناء عنه ، وكم من أناس انحرفوا وزاغوا بسبب مخالطتهم لأهل الانحراف والبدعة والزيغ ،نسأل الله عز وجل أن يثبتنا على الحق وأن يتوفنا وهو عنا راض ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * * * *

(١) في الحلية: فرات بن سليمان ، والصواب ما أثبت كما في كتب الرجال ، قال أبو حاتم: لا بأس به محله الصدق صالح الحديث ، وقد روى عنه جماعة ، فمثله حسن الحديث .

غبن كثير من الطلبة أنفسهم بتفويت تحصيل علم لا يجدونه إلا عند من يرون فيه شيئا من الانحراف عن المنهج الصحيح

ومع ما سبق ذكره في الباب السابق من التحذير من مخالطة أهل البدع إلا أن ذلك مقيد بما إذا لم يفض إلى ضياع شيء من العلم، قال الذهبي في السير (٧/ ١٥٤):القدري، والمعتزلي، والجهمي، والرافضي إذا علم صدقه في الحديث وتقواه، ولم يكن داعية إلى بدعته، فالذي عليه أكثر العلماء قبول روايته والعمل بحديثه، وترددوا في الداعية:

هل يؤخذ عنه؟، فذهب كثير من الحفاظ إلى تجنب حديثه وهجرانه، وقال بعضهم:إذا علمنا صدقه وكان داعية ووجدنا عنده سنة تفرد بها فكيف يسوغ لنا ترك تلك السنة؟.

فجميع تصرفات أئمة الحديث تؤذن بأن المبتدع إذا لم تبح بدعته خروجه من دائرة الإسلام ولم تبح دمه فإن قبول ما رواه سائغ، وهذه المسألة لم تتبرهن لي كما ينبغي[١]،والذي اتضح لي منها أن من دخل في بدعة ولم يعد من رؤوسها ولا أمعن فيها يقبل حديثه، وفي الميزان (٢/ ٣٧٩) قال ابن خزيمة عن عباد بن يعقوب الرواجني:حدثنا الثقة في روايته، المتهم في دينه عباد، وفي الميزان أيضا في ترجمة أبان بن تغلب: فلقائل أن يقول:كيف ساغ توثيق مبتدع وحد الثقة العدالة والإتقان؟ فكيف يكون عدلا من هو صاحب بدعة؟

وجوابه أن البدعة على ضربين:

فبدعة صغرى كغلو التشيع، أو كالتشيع بلا غلو ولا تحرق[٢] فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق، فلو رد حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بينة.

---

(١) رحمك الله من إمام، ما أشد إنصافك

(٢) في الأصل: ولا تحرف، وقد أثبت ما يناسب السياق

ثم بدعة كبرى كالرفض الكامل والغلو فيه والحط على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، والدعاء إلى ذلك ، فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة .

وأيضا فما أستحضر الآن في هذا الضرب رجلا صادقا ولا مأمونا ، بل الكذب شعارهم والتقية والنفاق دثارهم ، فكيف يقبل نقل من هذا حاله؟

حاشا وكلا .

فالشيعي الغالي في زمان السلف وعرفهم هو من تكلم في عثمان والزبير وطلحة ومعاوية وطائفة ممن حارب عليا رضي الله عنه ، وتعرض لسبهم . والغالي في زماننا وعرفنا هو الذي يكفر هؤلاء السادة ، ويتبرأ من الشيخين أيضا ، فهذا ضال معثر اهـ .

وقال ابن الصلاح في كتابه علوم الحديث ص(٢٩٩): وقال قوم تقبل روايته (يعني المبتدع)إذا لم يكن داعية ، ولا تقبل إذا كان داعية إلى بدعته وهذا مذهب الكثير أو الأكثر من العلماء .

وحكى بعض أصحاب الشافعي رضي الله عنه خلافا بين أصحابه في قبول رواية المبدع إذا لم يدع إلى بدعته ، وقال أما إذا كان داعية فلا خلاف بينهم في عدم قبول روايته .

وقال أبو حاتم ابن حبان البستي - أحد المصنفين من أئمة الحديث: -

الداعية إلى البدع لا يجوز الاحتجاج به عند أئمتنا قاطبة ، لا أعلم بينهم فيه خلافاً .

قال ابن الصلاح: وهذا المذهب الثالث أعدلها وأولاها ، والأول[1] بعيد مباعد للشائع عن أئمة الحديث ، فإن كتبهم طافحة بالرواية عن المبتدعة غير الدعاة ، وفي الصحيحين كثير من أحاديثهم في الشواهد والأصول . اهـ .

---

(١) يعني القول برد رواية المبتدع مطلقا .

وقد اعترض على ذلك ابن كثير رحمه الله في اختصاره لعلوم الحديث ص(٨٣) بقولـه: وقد قال الشافعي: أقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية من الرافضة، لأنهم يـرون الشـهادة بالـزور لموافقـيهم، فلم يفـرق الشـافعي في هـذا النص بين الداعية وغيره، ثم ما الفرق في المعنى بينهما؟

وهذا البخاري قد خرج لعمران بن حطان الخارجي مادح عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي، وهذا من أكبر الدعاة إلى البدعة، والله أعلم . اهـ .

وقال الشيخ أحمد بن محمد شاكر رحمه الله في الباعث الحثيث ص(٨٤)

وقـال بعضـهم:تقبل رواية المبتدع إذا لم يكن داعية إلى بدعته، ولا تقبل إن كان داعـية، ورجـح الـنووي هـذا القـول، وقـال هـو الأظهـر الأعدل وقول الكثير أو الأكـثر، وقـيد الحافظ أبو إسحاق الجوزجاني شيخ أبي داود والنسائي - هذا القول بقبول روايته إذا لم يرو ما يقوي بدعته .

ثـم قـال الشـيخ أحمـد بـن محمـد شـاكر: وهذه الأقوال كلها نظرية . والعبرة في الرواية بصدق الراوى وأمانته والثقة بدينه وخلقه، والمتتبع لأحوال الرواة يرى كثيرا من أهل البدع موضعا للثقة والاطمئنان، وإن رووا ما يوافق رأيهم [1]، ويرى كثيراً منهم لا يوثق بأي شيء يرويه . اهـ .

قلـت:وقـد أطلـت الـنفس في هـذا المقام لأن كثيراً من الشباب حرموا أنفسهم خـيرا كـثيرا بسـبب تـركهم الاسـتفادة مـن أناس عندهم بعض الخلل مع كونهم لا يجـدون ما عـندهم من العلم عند غيرهم، وربما كان المانع اختلافاً بين من يأخذون عـنه وبـين غيرهـم في أمـور يسـوغ فيها الخلاف، وربما كان الخلل عند كبيرهم، بل كثيراً ما يكون ذلك، فيحرمون بذلك خيراً كثيراً، والموفق من وفقه الله عز وجل .

* * * * *

---

(١) يعني مما لا يخالف السنة، ويؤيد ذلك ما رواه عدي بن ثابت (وهو قاص الشيعة) عن زر عن علي رضي الله عنه قال: والـذي فلـق الحبة وبـرأ النسـمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إلى أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق، وقد أخرجه مسلم في صحيحه (٧٨)

سوء الخلق

قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: «**ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر**» ، وقال: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾

وأذكر شيئا من سيرته ﷺ تبين مدى حسن خلقه ﷺ، فمن ذلك أن أنسا ﷺ قال، قدم رسول الله ﷺ المدينة ليس له خادم، فأخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن أنسا غلام كيس فليخدمك، قال: فخدمته في السفر والحضر، «**ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا ولا لشيء لم أصنعه: لم تصنع هذا هكذا**»؟ .[1]، وفي رواية أخرى قال «**خدمت النبي ﷺ عشر سنين**، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا ألا صنعت؟ .[2]

وعن أنس أيضا قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك ،فالتفت إليه، فضحك ثم أمر له بعطاء [3].

وفي رواية عند مسلم: فجاذبه حتى انشق البرد، وحتى بقيت حاشيته في عنق رسول الله ﷺ.

فأين هذا من أخلاق كثير ممن ينتسبون لطلب العلم الذين قد ظهر سوء أخلاقهم مع العامة والخاصة ومع أهليهم وذويهم؟ وكأن حالهم يقول أخلاقنا في جانب وما نسمعه من أخلاق النبي ﷺ في جانب، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي الحلية (٣/ ٣٦٢) عن الزهري قال: كنا نأتي العالم فما نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه.

* * * * *

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٨) ومسلم (٢٣٠٩).

(٢) رواه البخاري(٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩)

(٣) رواه البخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧).

عدم وضوح منهج السلف الصالح
عند كثير من الطلبة

إن معرفة العقيدة الصحيحة ورسوخها عند طالب العلم بل عند كل مسلم لهي أهم ما ينبغي الاهتمام به والتركيز عليه من كل داعية إلى الإصلاح ، وأيضا من المهم جدا وخاصة لطالب العلم وضوح منهج السلف الصالح وثباته عليه . فإن كثيراً من الطلبة تغيب عنهم كثير من مسائل المنهج ، فيكون عرضة للميل إلى المناهج المنحرفة ، خاصة عند الحوادث التي يسري أثرها في الناس ، فعندها يضعف طالب العلم عن مواجهة التيارات العارمة إذا كانت تلبس ثوب التغيير للفساد والانحراف وإقامة شرع الله ، فيواجه بأسئلة: إلى متى تبقون على ما أنتم عليه؟

متى تخرجون وتنتهون من دراسة أحكام الخلاء والطهارة؟

قد شغلتم المسلمين بسفاسف الأمور[١] وبالقشور ، والمسلمون في ذل وهوان ، وشريعة الله معطلة ، وهكذا يلبسون على الناس ، وكثيرا ما يسمون الأمور بغير مسمياتها ، فيسمون سعيهم للحصول على مقاعد في البرلمانات والنقابات جهاداً في سبيل الله ، ومن تخلف عن مساندتهم فهو متول عن الجهاد يوم الزحف إلى غير ذلك من هذه الترهات ، فإذا لم يكن طالب العلم راسخا على منهج السلف الصالح ، فإنه لابد أن يتأثر بمثل هذه الأمور ، وربما انجرف فيها ، وانصرف عن الطلب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فلابد لطالب العلم أن يكون على يقين من أن الطريق الصحيح هو العلم والعمل والتصفية والتربية[٢] وإعداد الرجال ، لا تكتيلهم على غير عقيدة ولا

---

(١) كذا يقولون ، وهذا من سوء أدبهم مع الله ورسوله ﷺ ، فإنه لا يجوز أن يوصف شيء من الدين بوصف يفهم منه تحقيرا ، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب**» . وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار ، نعم عند تزاحم الفرائض يقدم الأهم ، فالأهم ، ولكن أين القوم من هذا؟ ، إنهم يريدون إهمال السنن والواجبات حتى تقام دولة إسلامية ، ولن تقام دولة الإسلام إلا بطاعة الله عز وجل

(٢) ومن أراد مزيد بيان ووضوح لذلك فعليه بأشرطة شيخنا الألباني رحمه الله ، فإنه قد بينها بما لا يدع مجالا لمتخرص ، فرحمه الله رحمة واسعة .

منهج ، فليست العبرة بكثرة العدد ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

قال الشيخ الفاضل بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه القيم حلية طالب العلم ص(١٢):كن سلفيا على الجادة ، طريق السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم ، فمن بعدهم ، ممن قفا أثرهم في جميع أبواب الدين من التوحيد والعبادات ونحوها ، متميزا بالتزام آثار رسول الله ﷺ وتوظيف السنن على نفسك ، وترك الجدال والمراء والخوض في علم الكلام ،وما يجلب الآثام ، ويصد عن الشرع . قال الذهبي رحمه الله تعالى: -

وصح عن الدارقطني أنه قال:ما شيء أبغض إليّ من علم الكلام ، قال الذهبي: لم يدخل الرجل أبدا في علم الكلام ولا الجدال ، ولا خاض في ذلك ، بل كان سلفيا .

قال الشيخ بكر:وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة المتبعون آثار رسول الله ﷺ ، وهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: وأهل السنة: نقاوة المسلمين ، وهم خير الناس للناس . اهـ .

قال الشيخ بكر: فالزم السبيل «**ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**» .

* * * * *

انشغال بعضهم بأحوال الناس عن تحصيل العلم

إن الاهتمام بأحوال المسلمين وأمورهم لمن الأدلة على صدق الإيمان، ففي الصحيحين من حديث أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**»، وشبك أصابعه، وهذا لفظ البخاري[1]، وفي الصحيحين أيضا عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**». هذا لفظ مسلم [2]، وفي رواية عنده: «**المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله**».

فالمؤمن الصادق يحرص على معرفة أحوال إخوانه المسلمين في كل مكان، ويتتبع أخبارهم للاطمئنان عليهم، فيتألم لألمهم، ويحزن لحزنهم ،ويفرح لفرحهم، بخلاف ما عليه كثير من المسلمين اليوم الذين لا يهمهم أمر المسلمين، ولا يشغلهم إلا الصراع على الدنيا والجد والاجتهاد في تحصيلها بكل سبيل، ويرى هذا الصنف من الناس أن من تتبع أحوال المسلمين وتأثر بها فرحا وحزنا أنه إنسان لا يعرف مصلحته ولا ما ينفعه، ومع ذلك فينبغي لطالب العلم ألا يضيع وقته في تتبع الأخبار في وسائل الإعلام المسموعة و المقروءة والمرئية، فإن أخبار المسلمين المهمة ستصله إن شاء الله دون جهد منه، فالأمر كما قيل:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ::: ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فالأخبار المهمة الآن تسري بين الناس، وتصل الإنسان بالاضطرار، وأما سوى الأخبار المهمة من الأمور التفصيلية للأحداث، فلا يضر طالب العلم جهلها، وفي تحصيلها يضيع عليه من الوقت وانشغال القلب ما هو

(١) رواه البخاري(٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم(٢٥٨٦) وغيرهما.

أحوج إليه من الطعام والشراب، خاصة إذا كان الطالب في بداية أمره، فكثيرا ما يصرف الطلاب الانشغال بالسياسة وطرقها ومتابعة الأحداث عن طلب العلم، ولقد وصل الأمر بأناس أصبحت حصيلتهم معرفة أحوال المجتمع ومواضع الفساد وأسماء المفسدين والمنحرفين، وأمثال هؤلاء يسخرون من طالب العلم المجتهد في تحصيل العلم النافع إذا عثروا منه على جهل ببعض الشخصيات المشهورة، وإن كان ممثلا أو لاعب كرة ،ويرمونه بجهل الواقع، وعدم معايشة العصر ،مع جهل كثير منهم بما أوجب الله عز وجل عليه معرفته من الأمور الشرعية، بل كثيراً ما يجهلون كثيراً من أمور العقيدة ،ولا يرون ذلك نقصا طالما أنهم متضلعون في الإحاطة بأخبار الناس على التفصيل، الذي لا ينفع في غالب الأحيان، ولقد التقيت ببعض من عايشناهم ورأينا فيهم جدا في التحصيل وذكاء وفهما، ثم شغلوا بالسياسات وأحوال الناس والأمور المعاصرة، فإذا هو يحكي حال بعض أصحابه في هذا الحال الجديد الذي طرأ عليه، فقال: إن صاحبه سأل ولده الذي في نحو العاشرة من عمره أن يذكر له خمس مناطق من المناطق الساخنة على حد تعبيرهم في العالم، فانظر إلى طريقة تربيتهم للصغار، أي منفعة تعود على هذا الطفل من معرفة ذلك؟، وأيهما أولى أن يحفظ كتاب الله أو يعلم أن دول البلطيق النصارى تريد أن تنفصل عن روسيا ونحو ذلك من الأخبار؟

فأي إضاعة للأجيال أعظم من هذا؟

ومع ذلك فصاحبنا يحكي حال صاحبه وهو في غاية الإعجاب بصنيعه، وكثيراً ما كان شيخنا العلامة المحدث مقبل بن هادي رحمه الله يحكي لنا حال أحد زملائه في الجامعة الإسلامية حيث كان يصفه بالذكاء والفهم والسبق لزملائه في العلم غير أنه كان مشغولا بمتابعة وسائل الإعلام والأخبار، وقال الشيخ إنه لقيه بعد مدة، وقد انصرف عن تحصيل العلم ،وكان يسأل

شيخنا عن المسائل الشرعية ، فكان الشيخ رحمه الله يقول: فاحتاج إلى ما عندنا من علم شرعي ، ولم نحتج إلى ما عنده من أخبار ، فنصيحتي لطالب العلم ألا يشغل نفسه بمتابعة الأخبار والنشرات إلا ما لابد منه ، وليشغل نفسه ووقته بتحصيل العلم النافع ، فإن هذا هو الذي يحتاجه وتحتاج إليه الأمة ، والله يعصمنا وإخواننا المسلمين من الزلل .

* * * * *

التهاون في الصدق

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا**» [١]، وقد قال الله عز وجل ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾، ولذلك ينبغي لطالب العلم أن يعود نفسه الصدق في الحديث ، وهكذا كان سلفنا رحمهم الله ، ففي السير (٧/ ٢٢١): قال شعبة: لأن أخر من السماء أو من فوق هذا القصر أحب إلى من أقول: (قال الحكم لشيء لم أسمعه منه .

فقال الذهبي: هذا - والله - الورع

وفي السير أيضا (١٥/ ٤٦٤):قال أبو الحسن على بن إبراهيم القطان: أصبت ببصري ، وأظن أني عوقبت بكثرة كلامي أيام الرحلة .

فقال الذهبي: صدق والله ،فقد كانوا مع حسن القصد وصحة النية غالبايخافون من الكلام ، وإظهار المعرفة والفضيلة ، واليوم يكثرون الكلام مع نقص العلم ، وسوء القصد ، ثم إن الله يفضحهم ، ويلوح جهلهم وهواهم واضطرابهم فيما علموه . فنسأل الله التوفيق و الإخلاص .

وفي السير أيضا (١٢/ ٤٥٤)عن محمد بن مسلم خشنام: سئل محمد ابن إسماعيل بنيسابور عن اللفظ [٢] فقال: حدثني عبيد الله بن سعيد - يعني أبا قدامة -عن يحيى بن سعيد هو القطان قال: أعمال العباد كلها مخلوقة ، فمرقوا عليه ، وقالوا له بعد ذلك :ترجع عن هذا القول حتى نعود إليك ؟ قال:لا أفعل إلا تجيئوا بحجة فيما تقولون أقوى من حجتي ،

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .

(٢) يعني قول القائل: (لفظي بالقرآن مخلوق) ، وهو قول مبتدع لم يقله البخاري رحمه الله ، وإنما قال: أفعال العباد مخلوقة .

وأعجبني من محمد بن إسماعيل ثباته . اهـ . وأقول: رحم الله البخاري .

وأما كلام الحافظ الذهبي رحمه الله فيكفي من نصح لنفسه ، نسأل الله عز وجل أن يرزقنا الصدق ، وإذا كان الذهبي يصف حال المشتغلين بالعلم في أيامه بأنهم يكثرون الكلام مع نقص العلم وسوء القصد ، فماذا عسى أن يقول لو رأى حال المنتسبين إلى العلم وطلبه في هذه الأيام التي قل فيها الصدق وتحريه ، حتى إنك إذا سألت إنسانا عن شيء يرى في الجواب عليه نقصا فإنك لا تطمع في جواب واضح ، بل (لا أذكر) وما شابهها وما اشتق منها ، وربما إذا ضيق عليه وقع في الكذب الصريح حرصا على مكانته بين الناس .

قال الشيخ الفاضل بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه "حلية طالب العلم" ص ٦١: فالصادق لا يقول: "أحببتك" وهو مبغض ، ولا يقول: "سمعت" وهو لم يسمع ، وهكذا . . . .

واحذر أن تحوم حولك الظنون ، فتخونك العزيمة في صدق اللهجة ، فتسجل في قائمة الكذابين .

وطريق الضمانة لهذا -إذا نازعتك نفسك بكلام غير صادق فيه - أن تقهرها بذكر منزلة الصدق وشرفه ، ورذيلة الكذب ودركه ، وأن الكاذب عن قريب ينكشف .

واستعن بالله ولا تعجزن .

ولا تفتح لنفسك سابلة المعاريض في غير ما حصره الشرع .

فيا طالب العلم احذر أن تمرق من الصدق إلى المعاريض فالكذب ، وأسوأ مرامي هذا المروق (الكذب في العلم) لداء منافسة الأقران وطيران السمعة في الآفاق .

ومن تطلع إلى سمعة فوق منزلته فليعلم أن في المرصاد رجالا يحملون

بصائر نافذة وأقلاما ناقدة، فيزنون السمعة بالأثر، فتتم تعريتك عن ثلاثة معان:

١- فقد الثقة من القلوب.

٢- ذهاب علمك وانحسار القبول.

٣- أن لا تصدق ولو صدقت.

وبالجملة فمن يحترف زخرف القول فهو أخو الساحر، و لا يفلح الساحر حيث أتى[1] اهـ.

* * * * *

(١) عزاه لرسائل الإصلاح لمحمد الخضر حسين.

تنافر الأقران من الطلبة وحسد بعضهم بعضا

إن وقوع النفرة والتحاسد والتباغض بين الأقران مرض قديم نتج عنه وقيعة بعضهم في بعض ، فمن ذلك ما حكاه الذهبي في الميزان في ترجمة الحافظ أبي نعيم رحمه الله حيث قال:كلام ابن منده في أبي نعيم فظيع ، لا أحب حكايته ، ولا أقبل قول كل منهما في الآخر ، بل هما عندي مقبولان .

ثم قال:كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به ، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد ، ما ينجو منه إلا من عصم الله ، وما علمت أن عصرا من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين ، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس ، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم .

وقال أبو نعيم في ترجمة ابن منده في تاريخ أصبهان (٢/ ٢٧٨) رقم (١٧١١): حافظ من أولاد المحدثين ، كتب بالشام ومصر وخراسان ، واختلط في آخر عمره ، فحدث عن أبي أسيد ، وابن أخي أبي زرعة . وابن الجارود بعد أن سمع[1] منه أن له عنهم أجازة ، وتخبط أيضا في أماليه ، ونسب إلى جماعة أقوالا في المعتقدات ، لم يعرفوا بها ، نسأل الله جميل الستر والصيانة برحمته . اهـ .

فعلق على ذلك الذهبي في السير (١٧/ ٣٤)بقوله: لا نعبأ بقولك في خصمك للعداوة السائرة كما لا نسمع أيضا قوله فيك . فلقد رأيت لابن منده حطا مقذعا على أبي نعيم وتبديعا ، وما لا أحب ذكره ، وكل منهما فصدوق في نفسه ، غير متهم في نقله بحمد الله . اهـ .

وأقول:ومع ما ذكره الذهبي من كثرة كلام الأقران بعضهم في بعض إلا أن الحامل عليه في الغالب عند السلف هو المخالفة في الاعتقاد ، وهذا هو الواقع فيما بين ابن منده وأبي نعيم ، فقد قال الذهبي في السير (١٧/ ٤٦٢): قد كان أبو عبد الله بن منده يقذع في المقال في أبي نعيم لمكان الاعتقاد المتنازع فيه بين الحنابلة وأصحاب أبي الحسن . اهـ .

(١) كذا بالمطبوع ، ولعله قد سقط هنا كلمة (وادعي)

وأقول:ومعلوم أن عقيدة الإمام أحمد هي عقيدة السلف رضي الله عنهم ، فهو إمام أهل السنة والجماعة بحق ،وأما الأشاعرة فانحرافهم في العقيدة معلوم ، فالخصومة إذا بين حق وباطل .

ومع ذلك فغالب أحوال الأقران من السلف هي تقدير بعضهم لبعض وثناء بعضهم على بعض ، فمن ذلك:

- ما في السير (٩/ ٥٦٦): قال علي بن المديني: قال لي هشام بن يوسف كان عبد الرازق أعلمنا وأحفظنا .

فقال الذهبي:هكذا كان النظراء يعترفون لأقرانهم بالحفظ ، وفي الحلية (٣/ ٨٩): عن ثابت قال: لما ثقل جابر بن زيد قيل له: ما تشتهي؟ قال: نظرة إلى الحسن . قال: فأتيت الحسن ، فأخبرته ، فركب إليه ، فلما دخل عليه ، قال لأهله: أرقدوني ، فجلس فما زال يقول: أعوذ بالله من النار وسوء الحساب .

- وفي السير أيضا (١٦/ ٥٥ - ٥٦): قال الحاكم: كان أبو علي يقول: ما رأيت في أصحابنا مثل أبي بكر الجعابي ، حيرني حفظه ، فحكيت هذا للجعابي ، فقال يقول أبو علي هذا وهو أستاذي على الحقيقة .

- وفيها أيضا (١٠/ ٢٤٨ - ٢٤٩):

قال الفلاس: رأيت يحيى يوما حدث بحديث ، فقال له عفان: ليس هو هكذا ، فلما كان من الغد أتيت يحيى فقال: هو كما قال عفان ، ولقد سألت الله أن لا يكون عندي على خلاف ما قال عفان .

فقال الذهبي:هكذا كان العلماء ، فانظر يا مسكين كيف أنت عنهم بمعزل . اهـ فإذا قال هذا الذهبي عن أهل عصره فماذا عسى أن يقول عن أهل عصرنا الذين ساد فيهم الحسد والحقد والضغينة بين الأقران؟ ، وليته كان حسدا في العلم ، وإنما غالبه على المال والشهرة في تفاصيل لا أحب ذكرها ،أسأل الله عز وجل أن يزكي نفوسنا .

* * * *

تفويت الطالب على نفسه الاستفادة من شيخ لجفوة منه تجاهه

في الحلية(٢/ ١٧٧): قال عروة بن الزبير: رب كلمة ذل احتملتها أورثتني عزا طويلا . وفي الحلية (٩/ ١١٩-١٢٠): عن الشافعي قال: ما طلب أحد العلم بالتعمق وعز النفس ، فأفلح ،ولكن من طلبه بضيق اليد وذلة النفس وخدمة العالم أفلح .

وعن أبي يوسف القاضي قال: خمسة يجب على الناس مداراتهم: الملك المتسلط والقاضي المتأول ، والمريض ، والمرأة ، والعالم ليقتبس من علمه .

وعن الشافعي قال: كان يختلف إلى الأعمش رجلان: أحدهما كان الحديث من شأنه ، والآخر لم يكن الحديث من شأنه ، فغضب الأعمش يوما على الذي من شأنه الحديث ، فقال الآخر: لو غضب علي كما غضب عليك لم أعد إليه .

فقال الأعمش: إذا هو أحمق مثلك ، يترك ما ينفعه لسوء خلقي .

وقال الشافعي أيضا: قيل لسفيان بن عيينة: إن قوما يأتونك من أقطار الأرض تغضب عليهم؟ يوشك أن يذهبوا ويتركوك . قال: هم حمقى مثلك أن يتركوا ما ينفعهم لسوء خلقي [١] .

وقال بلال بن أبي بردة: لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا .

وقال الخليل بن أحمد:

اعمل بعلمي وإن قصرت في عملي ::: ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري [٢]

* * * * *

---

(١) روى ذلك الخطيب في الجامع (١/ ٢٢٢-٢٢٣) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٢٩) .

تقصير كثير من الطلبة في حفظ العلم خلافا لما كان عليه السلف

روى أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٣٤) بإسناده عن قتادة أنه أقام عند سعيد ابن المسيب ثمانية أيام، فقال له في اليوم الثامن: ارتحل يا أعمى فقد أنزفتني.

وفيها أيضا عنه أنه قال لسعيد بن أبي عروبة: خذ المصحف فأمسك علي، قال: فقرأ سورة البقرة فما أسقط منها واوا، ولا ألفا ولا حرفا، فقال: يا أبا النضر أحكمت؟. قال: نعم.

قال: لأنا لصحيفة جابر أحفظ مني لسورة البقرة، وإنما قدمت عليه مرة واحدة.

وفيها عن مطر قال: كان قتادة إذا سمع الحديث يختطفه اختطافا، وكان إذا سمع الحديث أخذه العويل والزويل حتى يحفظه.

وفيها أيضا عن مطر قال: كان قتادة عبد العلم [1]، وما زال قتادة متعلما حتى مات.

وفي الحلية (٦/ ٣٥٩): عن أيوب بن سويد قال: ما سألنا سفيان الثوري عن شيء إلا وجدنا عنده أثرا ماضيا، أو أثرا من عالم قبله.

وفي الحلية (٦/ ٣٧١): عن عبد الرحمن بن مهدي قال: كنا نكون عند سفيان الثوري فكأنه قد أوقف للحساب، فلا نجترئ أن نكلمه، فنعرض بذكر الحديث، فيذهب ذلك الخشوع فإنما هو حدثنا وحدثنا.

فهذا طرف مماكان عليه السلف رحمهم الله من الحرص على حفظ العلم، واستقصاء ذلك يطول، وقد حرم من هذا الخير كثيرون ممن ينتسبون لطلب العلم في أيامنا، بل أكثر من يتصدرون لتعليم الشباب لا يوجهونهم لحفظ العلم ولا يحملونهم عليه، وفي ذلك تضييع لجهد الشباب ووقتهم، مع أنه يوجد في الناشئة من آتاهم الله قدرة عظيمة على الحفظ، فلو استثمرت لنفع الله عز وجل بهم الإسلام و المسلمين، ولأحيينا سنة سلفنا الصالح، أسأل الله أن يصلح شأن إخواننا المسلمين.

* * * * *

---

(١) يحمل هذا على عبودية الملك، لا العبودية الحقيقية.

تضييع كثير من الطلبة والمشتغلين بالعلم حظهم من العبادة اتكاء على طلبهم العلم

في الحلية (٥/ ٤١): عن أبي بكر بن عياش قال: رحم الله منصوراً كان صواماً قواماً، وعن مغيرة هو ابن مقسم قال: اختلف منصور إلى إبراهيم، وهو من أعبد الناس، فلما أخذ في الآثار فتر.

وفي الحلية (٦/ ٣٧٠): عن سفيان الثوري قال: ليس طلب العلم فلان عن فلان، إنما طلب العلم الخشية لله عز وجل.

وفي الحلية (٧/ ٢١٦): عن محمد بن مسعر بن كدام قال: كان أبي لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن، فإذا فرغ من ورده لف رداءه، ثم هجع عليه هجعة خفيفة، ثم يثب كالرجل الذي ضل منه شيء فهو يطلبه، وإنما هو السواك والطهور، ثم يستقبل المحراب، فكذلك إلى الفجر، وكان يجهد على إخفاء ذلك جدا.

وفي الحلية(٧/ ٢١٧): قال مسعر: إن هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون؟

قلت: لا يعني مسعر بالحديث معرفة حديث النبي ﷺ، فإن تعلمه والعمل به يقرب من الله، وهو من ذكر الله عز وجل، وكأنه يعني، والله أعلم - الاستكثار من طرق الحديث بحيث يلهي عن العبادة وعن ذكر الله عز وجل.

* * * * *

الفهــرس

* * * * *